

المستحيل

مصطفى محمود



روايات المهلاك

روائع القصص العالمية

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

رئيس التحرير: طاهر الطنحاجي

العدد ٢٠٥ * يناير ١٩٦٦ * رمضان ١٣٨٥

No. 205 — Janvier 1966

بيانات ادارية

نمن العدد : في الجمهورية العربية المتحدة والسودان
٨٠ مليما - عن الكميات المرسلة بالطائرة : في سوريا
ولبنان ١٠٠ قرش سوري لبناني - في الاردن والعراق
١٠٠ فلس

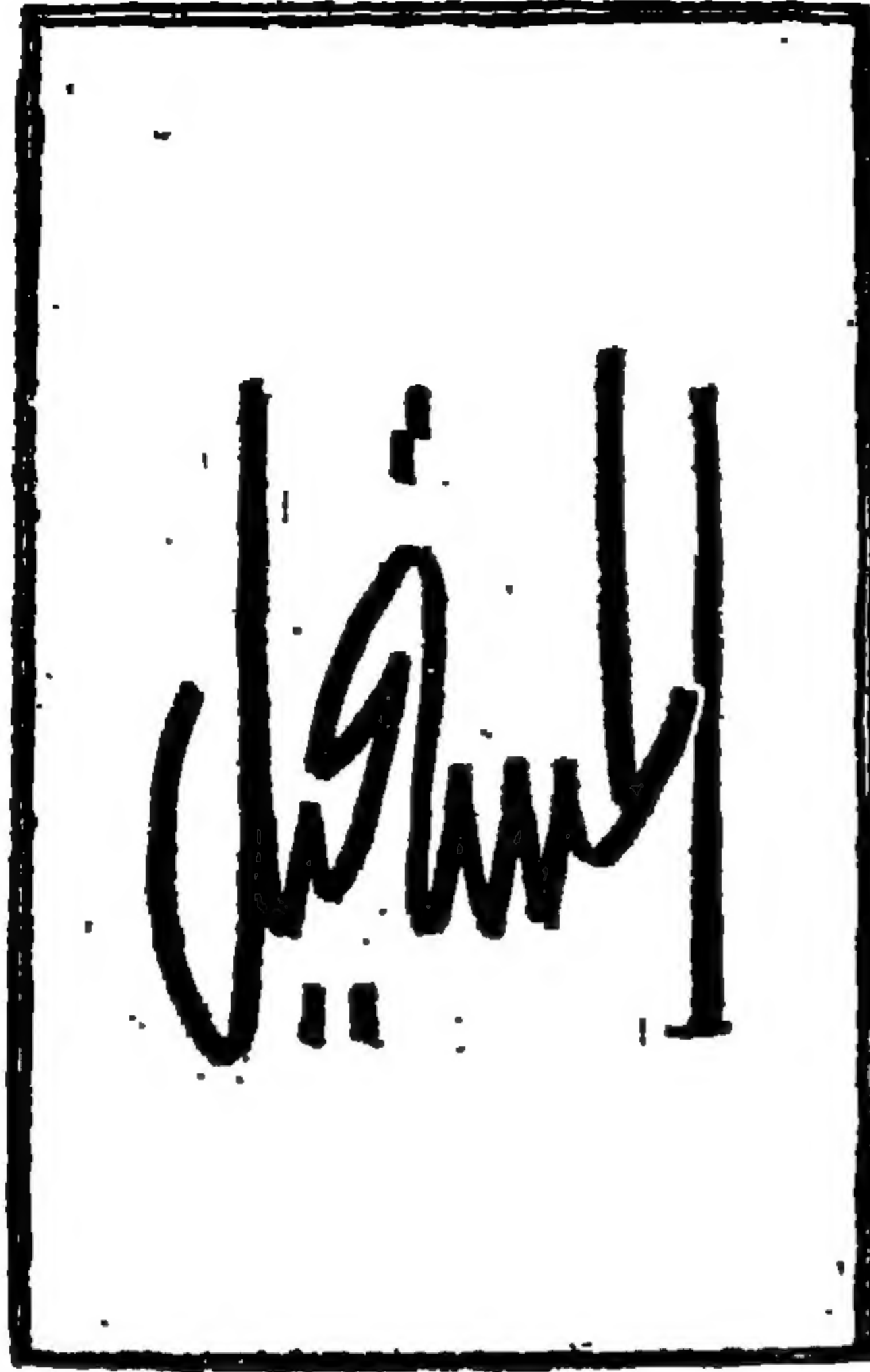
قيمة الاشتراك السنوي : (١٢ عددا) في الجمهورية
العربية المتحدة ٨٥ قرشا صاغا - في السودان ٨٥
قرشا سودانيا - في سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا
لبنانيا - في بلاد اتحاد البريد العربي ١١٠ قرش - في
الامريكتين ٥ دولارات - في سائر انحاء العالم ٣٠ شلنا
والاشتراكات تسدد لقسم الاشتراكات بدار الهلال
في الجمهورية العربية المتحدة، والسودان بحوالة بريدية
- وفي الخارج بتحويل مصرفي قابل الصرف في القاهرة

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٢٦ آنة ،
عدن : ٢٣٠ سنتا ، السودان : ٩٠ مليما ، ليبيا :
بنغازي ، طرابلس ١٢٠ مليما ، الجزائر ١٥٠ فرنكا ،
المغرب ١٥٠ فرنكا

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة
تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »



مجلة شهرية لنشر القصص العالمي



بقام

مصطفى محمود

حقوق الطبع محفوظة لدار الهلال

- ١ -

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ..
والبيت خال .. زوجتي عند أمها .. وأنا جالس وحدي .. أنصت
الى صوت تنفسى البطيء فيخيل لى أنه صوت رجل آخر غريب
لا أعرفه . ويدهمنى شعور ثقيل مر بالعربة ..
هذا أول يوم أجلس فيه مع نفسى .. وأنظر وجهها لوجه فى حياتى
وأأملها .. أى حياة !!!.. انى لم أعش أبدا ..
نيس فى حياتى يوم واحد أستطيع أن أقول انه كان يومى ..
انى لا أعيش .. ولكنى أتحرج كحصاة كبيرة ثقيلة .. تسوقنى
!الوظيفة الى المكتب .. ويجرئنى الزواج الى البيت .. ويدفعنى الملل
الى المقهى .. ويُلقي بى الجوع الى مائدة الطعام .. ويقهرنى الغيظ
على التدخين .. ويقذف بى التعب الى الفراش ..
خمس وعشرون عاما مرّت من عمرى كأنها لا شىء .. ازددت
فى الوزن .. فى الطول .. فى العرض .. ولكنى لم أزد فى
الحياة ..

سنة بعد سنة وأنا أغوص فى أرض رخوة من الأوامر والواجبات
والكلمات الغريبة .. الواجب ، الأصول ، تقاليد العائلة تحتّم ،
مركز والدك لا يسح ، سنّك لا تليق فيها كذا ، كرامتك ، ماذا

يقول الناس ، كيف تكون نظرة المجتمع إلينا ، الاحترام ، الوقار
يا أخى ..

حتى الجاكته التى ألبسها كانت مسكينة مثلى بلا شخصية ..
تطول وتقصر وتتسع حسب الموضة .. لا بارادتى ، ولا بإرادة
الترزى ، ولكن بإرادة التقاليد ..

فى وقت ما كنت أمسك فى يدى منشة .. وفى وقت آخر كنت
أمسك عصا .. وفى وقت ثالث كنت ألبس طربوشا .. والآن تضع
لى زوجتى منديلا فى كفى .. وتحريم على لبس الطربوش .. كل
هذه الأشياء كانت فى الحقيقة تلبسنى .. ولا ألبسها ..

والحياة كلها كانت تلبسنى .. وحركاتى تلبسنى .. وأنا أتضاءل
سنة بعد سنة تحت الردم .. تحت ركام من كلمات كبيرة لزجة ..
أذكر هذا الآن وأنا أتلقت حولى فى حياتى .. فى الغرفات
الخمسة التى أسكنها .. انها غرفات غريبة .. ضيقة .. وستقفها
منخفض .. وكل منها توصل الى الأخرى .. وهذا ليس ذوقى ..
فأنا أحب الغرفات الواسعة ذات السقف العالى التى تفصلها الممرات
والصالات . وهى غرفات تضربها الشمس من اليمين والشمال ..
وأنا أحب الغرفات الرطبة الظليلة ..

ان البيت لا يبدو كأنه بيتى .. لقد اختارده والدى .. اختار المكان
والأرض .. وبنى البيت حسب ارادته .. وفصله حسب ذوقه ..
واختار الأثاث قطعة قطعة .. حتى الصورة الكبيرة .. النسخة المنقولة
عن صورة الجيو كندا لدافشى .. هو الذى اشتراها بنفسه وأهداها

الى بمناسبة زواجى ووضعها فى الصالون وقال انها مثال للذوق
الرفيع فى الفن ..

وشعرت من البداية أنها صورة سخيصة قاتمة .. وأن دمها ثقيل ..
ولكنى لم أتكلم .. لأنى رأيت من الواجب أن أكون مؤدبا .. وأن
أجامل والذى فى هديته وأمتدح ذوقه .. فقلت له : « نعم .. أنت
على حق .. انها رائعة » .. وقال فى زهو العارفين : « أنظر الى اليدين
جيدا .. »

ونظرت الى اليدين جيدا .. فلم ألحظ شيئا .. وقال فى انتصار :
- انها تبتسمان .. انظر .. هذا هو الاعجاز فى اللوحة .. ان
الرسام رسم اليدين تبتسمان .. ان فى اللوحة كلها ابتسامة غير
منظورة .. لقد كان الرسام يجلب معه كل يوم فرقة من العازفين
تتزف للحيو كند' وهو يرسمها ليدخل فى قلبها السعادة فتبتسم ..
وأنت تحسن بنوسيتي وتسمعها .. وأنت ترى اليدين فى وضعهما
الجميل المناسب ..

وأكبرت فى وادئ هذا الاحساس المرهف .. وان كنت لم
ألحظ أنا أى شىء غير عادى فى الصورة ... وظلت أعيد على كل
ضيف يزورنا هذه التقييدة .. عن الابتسامة غير المنظورة ..
والموسيقى .. والاعجاز فيهمز رأسه تماما كمن هزرتة ويقول فى
آلية : يا سلام .. حقا انها رائعة .. واليدان تبتسمان .. تماما ..
يا سلام ..

ويروح بدوره يحكى القصة لصديق آخر ..

وظللت على اكبارى لوالدى .. وذوقه .. ونظرته العميقة الناقدة
حتى قرأت مصادفة ، وفي مجلة قديمة ، كل هذا الكلام بالنص ..
عن الابتسامة غير المنظورة والموسيقى فى اليدين .. والاعجاز ..
الخ . الخ . ولا أدري لماذا أحسست فى تلك اللحظة أن الحكاية
كلها كلام فارغ متوارث روته الصحف وتناقله القراء .. كل قارئ
يردده على أنه رأيه الخاص وذوقه . وظللت من يومها أشعر بالغىظ
كلما رأيت الصورة مدلاة من الجدار فى غرفة الصالون .. وأشعر
أنى لم أقل رأى أبدا فيها .. وأنى عشت أردد كلمات غريبة عنى
طول عمرى ..

وكان من عادة أبى أن يزورنا كل يوم جمعة ليطمئن على .. هكذا
كان يقول .. ولكنى أعتقد الآن أنه كان يفعل هذا ليطمئن على
نفسه .. ليرى أن أوامره ما زالت نافذة ، وملاحظاته ما زال معبولا
بها .. الدواليب مغلقة بالمفاتيح ، والمفرش المشمع موضوع على
مائدة الطعام ، وأصيص النعناع فى البلكون ، والنوافذ كلها مفتوحة
لتدخل الشمس .. وأول شيء ينظر إليه عند دخونه هى النوافذ ..
فاذا رأى الشيش مغلقة فتحه على مصراعيه وهو يصيح : « الشمس
يابنى الشمس .. هذه شمس لا مثل لها فى الدنيا .. انها أحسن
دواء للروماتزم .. افتح الشباك عندك .. أنا قلت ألف مرة افتحوا
كل الشبايك .. »

ويتندد فى الشمس يطرق مفاصله .. وأبى كان دائما يشكو من
الروماتزم . ولهذا كان يفتح الشبايك فى بيوت أولاده ، فى كل

وقت ، وفي كل فصل من فصول السنة .. ولو استطاع لسقانا
فنجانا من السلسلات ثلاث مرات في اليوم كما كان يفعل
ولم يكن يجدي أن نحتج ونقول اننا أصبحاء ، وأنا لسنا مرضى
بالروماتزم .. فمعنى أن يكون أبى مريضا بالروماتزم ، أن نكون
جميعا مرضى بالروماتزم .. فأبى مفتش تركى فيه كل أخلاق الأتراك
ودماغهم الناشف .. وغرامهم بالأمر والنهى . وكان يعاملنا نحن
أولاده كأننا تكية .. ويعيش حياته ويعيش لنا حياتنا أيضا ..
لم يحس واحد منا في أية لحظة بأن له كيانا مستقلا .. أذكر حينما
كنا صغارا أن أبى كان يحب الشاي فكنت أشرب معه الشاي ..
وحينما تقدمت به السن ومرض بالضغط وحرم عليه الطيب شرب
الشاي ، أصبحت أشرب الينسون .. لأنه أصبح يشرب الينسون !
وظل سلطانه يحلق فوق رأسى حتى بعد أن جاوزت سن التلمذة
وتخرجت من المدارس لأعيش بإيرادى الخاص .. كنت أستشيريه من
تلقاء نفسى كلما وقعت في مشكلة .. كان الخوف ما زال في دمي ..
الخوف من الدنيا ، ومن المرأة ، ومن أن أحسم أمرا بإرادتى وبدون
مشورته .. كان قلبى تأكله الرغبات من الداخل ، ولكنى لم أكن
أجرؤ على التفكير فيها واشباعها .. وإنما كنت أتردد وأخاف
وأجزع ثم أكتفى بأن أتمنى ، ثم أهرب من المشكلة كلها وألوذ
بوالدى أطلب نصيحة .. وأترك له حياتى يتأبى فيها ويختار كما
يشاء كأنه الله أو القدر ..

وهكذا ظلت حياتى معطلة طوال هذه السنين .. وظللت أعيش

طفلاً كبيراً يسلأ قلبي الخوف والاحترام والرغبة .. ولو سألتني ان كنت أحب أمينة زوجتي لما وجدت جواباً .. فأنا لم أحبها ولم أكرهها ولم أخترها .. وأنا هي كصورة الجيو كندا وضعتها والدي في بيتي .. وقال انها جميلة ورائعة .. فقلت خلفه كالطفل جميلة حقاً ورائعة .. واحتضنتها كما احتضن كل كلمة يقولها أبي ..

ولكن بقدر الراحة التي كنت أحسها في هذا الحب الا أني كنت أحس أنه ليس حبي أنا وإنما هو حب أبي وذوقه واختياره .. كان كل شيء حولي لا يمت لي .. كان كل شيء غريباً عني ، حتى ملابسى .. حتى أفعالى .. حتى أقوالى كانت غريبة عني .. ولكنى لم أكن أدرك مشاعرى بهذا الوضوح في البداية .. لم تكن في ذهني فكرة واضحة عن شيء .. كنت أعيش في فتور وآلية وبلادة واستسلام .. حتى مات أبي فجأة ..

.. وأفقت لأجد نفسي وحدى بدون سند الى جوارى .. بدون قدر .. بدون اله .. بدون حب .. بدون ميرر لأى فعل أفعله سوى ارادتى وأين هي ارادتى ؟! .. لقد كنت أتردد ثلاثة أيام متتالية في توقيع شيك .. وأنظر فوق كتفى بين لحظة وأخرى ، أتتظر أن يظهر والدى فجأة لأسأله : هل من الصواب أم الخطأ توقيع هذا الشيك ؟! ..

ولم يكن هناك حل .. كان لا بد لي أن أحمل أعبائى بدون معونة أحد .. وكان هذا يسبب لي قلقاً حاداً قاسياً يحرمنى النوم .. لقد بلغ ميراثى وحدى من تركة أبى مائة فدان غير العقارات

والأملاك وسندات البنوك .. وهى ثروة كبيرة فوجئت بها .. وكان معنى هذه الثروة أن أذهب فى عشرات المشاوير كل يوم .. الى البنك ، والى البلد ، والى البورصة .. وفى كل مشوار من هذه المشاوير أقابل ناسا لا أعرفهم .. أناقشهم وأوقع على أوراق ، وأمضى على عقود ، وأبدأ صفقات ، وأنهى صفقات وفى كل لحظة من هذه اللحظات أشعر أنى وحيد متردد خائف .. وأعود من البنك مبجل الذهن .. فى ظنى أنى قد نسيت شيئا ، وقعت فى خطأ ما ، أو تورطت فى اجراء غير قانونى .. ولكن بمرور الأيام بدأت أكتشف ان المال فى البنوك والادارات المالية يحفظ نفسه بنفسه .. وانى لست فى حاجة الى ذكاء كبير لأضعف أموالى ، فالأموال تتضاعف من تلقاء نفسها فى العقارات والأراضى والبنوك .. وما على الا أن أذهب أول السنة لأجمع الأرباح وأوقع فى دفتر .. وبدأ الخوف يزايلى .. وبدأ ذهنى ينصرف الى أفكار أخرى .. أفكار لا علاقة لها بالأرض ، والبنك ، والمرحوم والدى .. أفكار لها علاقة بى .. أنا ! .. وحينما أحضرت لى زوجتى كوب الشاى منذ أيام .. وقلت لها : « أنا لا أحب الشاى » .. نظرت الى فى دهشة واستفهام .. فهى لم تتعود منى أن أقول : « أنا .. لا أحب » .. تعودت أمينة أن آكل ما تقدمه ، وأشرب كل ما تقدمه .. ولكنى قلتها .. قلت : « أنا لا أحب » .. وأنا أشعر بدهشة أنا أيضا ، لأنى أقول ما فى نفسى لأول مرة بدون أن ألقى بالا لأحد .. !

واكتشفت في ذلك اليوم عندما دخلت غرفتي وجلست على مكتبي .. أنى لا أرفض الشاى وخذ .. ولكنى أرفض معه أشياء أخرى كثيرة .. أرفض بيتى وحياتى ، وأتمنى أن أصرخ فجأة لأقول 'لزوجتى : « أنا لا أحبك » . وأقول عن حياتى انها سخيصة ، وأنزع الصورة المدلاة من الجدار وألقى بها فى الشارع .. ولكنى لم أجد الجرأة على أن أقول كل هذا.. واكتفيت أن أرفض الشاى فى عصبية وأزيحه من أمامى .. ثم أشعل سيجارة ..

وعادت حياتى فجأة أمامى كشريط سريع .. حياة سخيصة مثل لحة مستعارة ، ليس فيها ملامحى .. ليس فيها أنا .. وشعرت بشهوة الطفل فى تحطيم أى شىء والجرى الى الخلاء .. الى الهواء الطلق ، والعريضة ، والضحك ، والبكاء .. شهوة ملحة فى أن أبسط أجنحتى التى كانت مضمومة طوال هذه السنين وأخلق بها كالطائر .. وتدفقت أيامى كلها تطالب بحقها فى أن تعيش من جديد .. طفولتى .. صباى .. شبابى ..

ثم عاودنى الجبن ، وتيقظت خوفاً القديم ، وأمسك بعقالى .. وسكتت على مضض وأنا ألوك فى فمى آلاف الكلمات .. ولكنى أحسست أنى تغيرت ، وأصبحت شخصا آخر غير حلمى القديم .. عرفت لذة التمرد .. وظل هذا الاحساس يلازمنى وأنا أدخل الى انبورصة .. والسيجارة ما زالت فى فمى .. وعيناي تقرأن الكلمات المكتوبة على السيورة فى الدور العلوى .. حركة الأسعار ، نوع اسعار الفتح ، أسعار الاقفال .. وأذنى تلتقط صيحات السماسرة

حادثة مختلطة : سيجوارت ٨٤٢ ، سيلوس ، سيلوس ، التبدين
٤٠٠ بايع ، بايع .. المناجم ١٢٨ .. الملح ، الملح ، شارى .. أسمنت
طرة ٩٧٠ ، ماتكسا ، ماتكسا ، بايع

والأيدي تلوح .. وتشتبك . والأصوات الحادة ترن في أذني
كأصوات القطط ، وهي تتعاضد على صفيحة قسامة .. وعيونها تشع
ضوءاً أخضر مخيفاً : ناو ، ناو .. نو .. غو .. غو .. غو .. ورأس
الخواجة متری التاجر العجوز ووجهه الأبرص المرقط بالبياض
يذكرني بوجه قطتنا .. جيبي ..

وانتقلت عيناى فى آلية لتقرأ على لوحة أخرى : كثرات أقطان
طويلة النيلة .. فولى جود .. وسعت الخواجة متری يتحدث ويلوح
بيده :

— يا حبيى الدنيا هنا مجازفة .. الى عاوز يكسب لازم
يجازف .. يرمى نفسه .. الى يخاف هنا يسوت ..

ووقفت خائفا فى ركن أطلب نصيحة الخواجة متری قبل أن أبيع
أوراقى .. وأشار على بصفقة صغيرة .. وأمسكت بقلبي لأوقع
الاذن .. وأحسست برعشة التحدى تنتقل الى بالعدوى من الجو
المكهرب حولى . كان كل واحد يتمتر .. ويلمظ على المكسب ..
وأخذت أنا الآخر أتلمظ ، وأتسر .. وأتبع أسعار أسهمى وهى
ترتفع .. وتقفز من رقم الى رقم على التابلوء .. وأتبع الطباشيرة
وهى تكتب ١١٢ — ١١٤ — ١١٨ — ١٢٠ — ١٢٢ — ١٢٣ ثم
توقف ويصرخ السمسار بأعلى صوته ١٢٣ — ١٢٣ .

وترددت .. لا من الخوف ، ولكن من الطمع . لقد ارتفع السعر
١١ بنطا في يوم واحد .. فما بالى لو انتظرت يومين آخرين ..
وشعرت بطمعى يتغلب على خوفى ، وشعرت بإحساس الطفل الذى
تزوغ عيناه أمام دكان الحلوى .. وغمزنى الخواجة مترى لكى
أبيع .. ولكنى لم أبيع ..

وحينما خرجت فى ذلك اليوم ، كنت أشعر بشيء جديد غامض
يدخل حياتى .. كنت أحس بنبض الحماس والجرأة يتسلل الى
عروقى .. وكنت أشعر بحياتى القديمة تسقط عنى شيئا فشيئا
كالرداء .. وتبدو غريبة ..

زوجتى .. بيتى .. فنجان الشاى الذى أرشفه على الفطور ..
أصوات الشارع الأليفة وهى تعلو فى الصباح تحت نافذتى ..
همهمة أم حسن خادمتنا المعجوز على سبحتها .. ودعاؤها لى بطول
العمر ..

كل هذا كان يبدو لى فى تلك اللحظة كحلم غريب غير حقيقى ..
لقد تغيرت .. كان هذا الاحساس يسعدنى .. وكنت أحتفل به فى
قلبى ..

وحينما خرجت من السينما فى الثانية عشرة لم أشعر برغبة فى
العودة الى البيت .. ورأيت قدمى تسعيان على غير عادتى انى ملهى
ليلى .. ودخلت فى وقت كانت الراقصة فيه تلقى بشالها ، وتمايل ،
وتتأود ، وتنام على ظهرها .. وعازف الطبله يقفز حولها كالترد ..

ولفت نظري أن كرسى عازف الطبله عليه شلته ولا أدري لماذا
خطر لي أن عنده بواسير .. وضحكت طويلا لهذا الخاطر السكران ..
ولم أكن قد ذقت قفزة خمر ، ومع هذا كنت أشعر أن رأسى
مشتع خفيف .. وكنت أرى سيبا للضحك فى كل شىء حولى ..
وبدت لى حركات الطبل مثيره للضحك .. وكان كلما مد يده
خلفه ضحكت .. وحينما تركت الملهى فى ساعة متأخرة من الليل
فضلت أن أعود الى بيتى ماشيا .. وكنت أجده للبواء طعما لذيذا
فى رئتى .. وكنت أستشقه فى بطء ويدائى فى جيب بنطلونى ..
وفى عصر أغنية شعبية . وكان كل واحد يمر بى .. يبتسم ..
وحيثما فتحت باب شقتى فوجئت بزوجتى تقف أمامى شاحبة
حمراء العينين قلقة .. تهتف فى صوت خائف : « أين كنت طول
الليل ؟ »

وتذكرت فجأة أن الساعة الثالثة صباحا .. وأن هذه هى المرة
الأولى التى أسهر فيها الى هذه الساعة المتأخرة .. ومسحت على
وجهى يدي .. وأنا أفيق وأعود شيئا فشيئا الى نفسى القديمة ..
وتنمت بكلام لا أذكره ..

وخلعت ثيابى .. وتناولت عشاءى وأنا صامت .. لم أكن سعيدا
بعودة هذه النفس القديمة . وبدأ لى فى تلك اللحظة أنى هبطت
فجأة من السماء الى الأرض .. وعدت الى الحياة .. كأنسان
ميكانيكى يدور بزمبلك ..

وناولتنى زوجتى خطابا عليه طابع دمشق .. ونظرت فى الخط

وأنا أتساءل : من الذى يرسل الى خطابا من دمشق .. ووضعت
في جيبى ..

وفي الفراش مددت يدي الى الخطاب وفتحته لأقرأ هذه
السطور ..

« عزيزى حلمى ..

« لعلك لاتذكرنى الآن وأنت تقرأ التوقيع .. فقد مضى على
افتراقنا سنوات طويلة ، ولكنى أذكرك وأذكر معك أجمل أيامى ..
حينما كنا نلعب أنا وأنت وأختى صافى فى عزبة والدى ونحن
صفار .. ونجرب فى دائرة حول النورج .. كل منا يمسك بذيل
الآخر ، وأذكر أيام زمالتنا فى المدرسة الابتدائية .. وأيام هروبنا
معا .. حينما كنت تخاف وتعود الى المدرسة وأمضى أنا وأختى
صافى لنقضى اليوم فى حديقة الحيوان ..

« واليوم جلسنا نتحدث عنك أنا وأختى .. وفكرنا أن نلتقى
ثانية لتتعارف على ماضينا الحلو .. ونعيد أيامنا الجميلة .. ائنا
نعيش الآن فى دمشق ولنا آملاك وأراض هنا .. ونحن ندعوك
لقضاء شهر فى ضيافتنا .. ولنا أمل كبير فى قبولك هذه الدعوة ..
ونحن فى انتظار اليوم الذى تحدده .. والى أن نلتقى لك حبنا
وأخوتنا .

« فؤاد »

وشعرت بموجة من السرور وأنا أقرأ الخطاب .. وأعدت قراءته
وأغمضت عيني .. سوف أذهب الى دمشق .. وأخلع ردائى كله ..

أخلع عنى هذا البيت العتيق بأركانه المظلمة ، وأخلع عنى القاهرة
كلها .. وأخلع حياتى .. وعاداتى .. وكلماتى .. التى أقولها كل
صباح .. وأعيش ..

وشعرت بدغدغة النشوة فى كل جسدى .. ونظرت الى زوجتى
فرايتها تنظر الى باستغراب وتساألنى عما فى الرسالة .. ولم أجب
وتناومت .. فأحاطتنى بذراعيها ولكنى لم أشعر بالرغبة فيها .
وأحسست بأطرافى تبرد وتتشحج تحت لمستها .. وأدبرت لها ظهرى
وبدأت أتخيل صافى .. وجهها التركى الأبيض ، وضميرتها الذهبية ،
وعينيها الصافيتين مثل كأسين من عسل النحل ، وذراعاها البض مثل
عود الخس الطرى

وتدفقت الرغبة حامية فى عروقى .. وأحسست بلهب الجنس
يخرق دماغى .. ولكنى أخفيت هذه الرغبة كأنى أخفى سرا ،
وضننت بها وتركتها تغلى فى دمى .. وتورقنى .. مثل سر لذيد
جدا .. وظللت أحلم ..

وكانت زوجتى تتحدث .. ولم أكن أسمعها .. كنت أنظر الى
فمها وهو يفتح وينغلق .. والى كتفيها العريضين . ودقت ساعة
الحائط أربع دقائق .. وثقل قلبى فجأة وعادونى الخوف وأحسست
أنى ضعيف .. وأن الساعة تدق منذ خمس وعشرين سنة .. وأنا
فى بيتى لا أبرحه . وداهمنى شعور بالتردد .. شعور من يمد رجله
ليخطو خطوة واسعة فى الظلام

استيقظت فى الصبح وقد نسيت كل شىء .. وفى اللحظة التى كنت ألبس فيها ثيابى ، كنت أدخل فى عاداتى القديمة فى نفس الوقت .. وكانت زوجتى تمر بالفرشاة على نفس الأماكن من القماش التى تعودت أن تمر عليها كل يوم .. حول الياقة ، وعلى الأكتاف .. وعلى الظهر والأكمام .. وثنية السروال ، ثم تتصحنى كعادتها ان آخذ بالى من الطريق وتتنظر الى نفس النظرة الحنونة .. وأم حسن تجرى خلفى وفى يدها الحقيبة .. والباب يزوم كعادته دائما كل صباح ليشكو من رطوبة مفاصله .. وحارس المصعد يرفع يديه الاثنتين لتحتى .. ويفتح فمه فى بلاهة فتبدو سنته الذهبية .. نفس السنة الذهبية ذات الطربوش المكسور التى أصطبج بها كل يوم .

وجلست فى العربة ، وتصادت الى أنفى رائحة البترين .. وسمعت صوت الموتور .. ورأيت واجهات المحلات تتحرك فى الزجاج وتختفى .. ولكن أذنى ظلت تردد جملة واحدة طول الطريق .. جملة قالتها زوجتى وهى تعطينى المنديل : « لاتنس انا سوف نحتفل اليوم بعيد ميلاد ابنا .. »
جملة غريبة فى هذا السيل من الحياة العادية .. ظلت ترن فى أذنى

طول الطريق ، وأنا أحس أنها جملة ظريفة .. وأتذكر احتفال السنة
الماضية الذى لم يحضره أحد سواى أنا وزوجتى وأبى .. وكيف
كانت زوجتى غاضبة لأنها لم تدعُ صديقاتها وأبى غاضب لأنها
تناقشه وتريد عزومة الناس .. وماذا وراء عزومة الناس الا الحسد ،
وأنا آكل من التورته ولا أفكر فى شيء .. وابتنا يصرخ فى الغرفة ..
ولكنى الآن أفكر فى أشياء كثيرة .. وأتظر هذا الاحتفال بشوق .
وكلمات زوجتى ترن فى أذنى كما ترن بشرى العيد فى أذن
طفل .. واحساسى بالنزق يدفعنى الى الضغط على الكلاكس ..
والعبث .. وأنا أسوق .. وأنا أأرجح يمينا ويسارا ..
اليوم نحتفل .. أنا أشعر بانبساط .. وتوقفت عند دكان لعب
واشترت قردا بزمالك يقفز ويصفق يديه .. واشترت ورقا
ملونا .. وصواريخ ..

وتوقفت مرة أخرى عند محل ورد .. ثم عدت أستأنف سبرى
وأسلم نفسى الى حياتى العادية .. وعلى شفتى ابتسامة .. وفى المساء
حينما عدت الى البيت ، دخلت غرفتى وأنا أصفر .. ثم أغلقت
الباب وأخرجت القرد وأدريت الزمالك .. ورحت أفرج عليه وهو
يقفز ويصفق يديه حتى توقف .. ثم أدريت الزمالك مرة أخرى
ورحت أفرج .. ونسيت أنى قد أحضرت اللعبة لطفلى .. ورحت
ألعب بها ..

ولكن زوجتى التى تسللت من الباب المؤارب وجاءت تستطلع ..
ووقفت تفرج ، مالبثت أن هتفت فى دهشة أيقظتنى : « أنت الذى

تلعب .. غير معقول ؟ »

وضحكت وأمعت في الضحك .. ومع هذا فقد أمسكت هي
الأخرى بالقرد .. ثم بدأت تدير الزمبلك وتلعب .. ثم قالت فجأة
في مرح : « ان حفلة اليوم ستكون ظريفة .. لقد دعوت جيرانتا ..
ودعوت صديقتي فاطمة .. »

ورفعت رأسى عند ذكر الاسم .. وكنت أسمع منها دائما حكايات
كثيرة عن صديقتها فاطمة المحامية .. ولكنى لم أكن قد رأيتها
أبدا ..

وكانت كثرة ذكرها أمامى ، ورواية حكاياتها ، قد جعلت لها
شخصية في ذهنى .. وشعرت بسرور خفى .. وعدت أملأ الزمبلك ..
وأفترج على القرد .. وهو يقفز .. ويصفق يديه .. !

ولأول مرة كنت أشاهد كرسى الصالون من غير بياضات هذه
الليلة .. وقماش الطقم يلمع في ضوء النجفة الكريستال .. وكنت
أتحس قماش الطقم في لذة .. وأختلس النظر الى الضيوف .
كانوا ثلاثة .. جارتنا الأستاذ عزيز ، وزوجته نادية ، وفاطمة
المحامية ..

وكنت أختلس النظر الى فاطمة وأتبع حركاتها في اهتمام ..
وأجد من الصعب الآن أن أصف احساسى بها لأول مرة .. كان
احساسى حينما أمسكت يدها لأصافحها أنى أمسك بأصابع خالية
من العظم .. وبشرة ملساء فيها ملاسة حيوانية كأنها جسم «عرسة» .

وكان صوتها المبلل وهو يحادثني فيه لزوجة تلتصق بالأذن
وبالأعصاب . ولم تكن جميلة .. ولكن جسها كان فيه بضاضة ..
وكان صدرها « يكظ » من فتحة ثوبها .. وكانت أردافها تضغط
على الفستان .. وكانت استدارة كنفها وهي تختفي تحت الحرير
الأسود المطرز تثير الخيال والتصور .. وتغريه على تتبع هذا
الاتسial .. وكان تكور بطنها تحت الفستان يوحي بأن لحمها ليس
فيه ثنية واحدة وأنه مشدود متوتر .. فائر .. وكانت عيناها فيهما
بريق .. يومض .. وينطفئ .. حينما ينعكس عليهما الضوء ..
وهي تتلفت ..

وكانت في شخصيتها جرأة واقتحام .. وكانت في كلماتها مبادرة
غير عادية في النساء . كانت على عكس زوجتي تماما .. وكانت
زوجتي سعيدة بها جدا .. فخورة بشخصيتها وجرأتها .
وكانت تقول وهي مبهورة :

— هذه هي رائدتي .. هذه هي القائدة التي كانت تتزعما في
المظاهرات وفي الاضرابات .. وكانت خطية المدرسة الرسمية ..
ورئيسة فرقة التمثيل .. ورئيسة كل حاجة .
— فعلا .. ان مخايل الزعامة تبدو عليها ..

كنت أقول هذا وأنظر اليها .. فتبادلتني بنظرة ثابتة وعينين
فاحصتين لا تطرفان حتى أنكس بصرى .. فتلاحقني بكلماتها وصوتها
المبلل .. وتبادرني قائلة في تحد :

— مالكم دائما تصابون بالدوار حينما تسمعون عن امرأة ..

تقود وتأمر ..

فأقول وأنا أحاول أن أثبت نظرتي في عينيها :

— لأن المرأة تقود وتأمر فعلا بدون حاجة الى مظاهرات واضرابات
وخطب .. لأننا نحبها ونسلمها ذقوتنا .. فيصبح الرأى رأينا
والكلمة كلمتها ..

— أنا أرفض هذه القيادة التي أفوز بها لمجرد تنازلكم .. انه
غرور منكم أن توقيفوا حياتنا على حبكم .. أنا أيضا لى غرورى ..
أنا أريد أن أغتصب حقى يدي .. وأخذه رغما عنكم .
— أسمع الكلام .

وتصفق زوجتى فى سرور واعجاب .

— أسمع الكلام . هذه هى المرأة الجديدة التى سوف تريك
مقامكم ..

— انها لن ترينا مقامنا .. وانما هى سوف تسعى الى حثفها
بيدها .. سوف تتحول الى رجل .. وسوف نرحب نحن بأن تصبح
نساء . نجلس فى البيت وتأخذ نفقة ومؤخرا ومقدما وشبكة وبذلات
أنيقة وكرافتات سولكا لأعياد ميلادنا .. انها ورطة يسرنا أن تقعن
فيها . أنا لا أمانع شخصا فى أن أنام فى البيت ، وأتنازل لكن عن
الشقاء وعرق الجبين ..

— أظن أنه يمكن أن أتحوّل الى رجل ؟ انى أعمل منذ خمس
سنوات .. أظن أنى أصبحت رجلا ؟ .. أنظر جيدا ..
وترمقنى برمش عينيها فى دلال . ويقهقه الأستاذ عزيز ..

.. انك لاتغلبهن يا صاحبي .. اسمع نصيحتي .. ان الطريق الوحيد لتغلب المرأة هي أن تجعلها تحبك .. وحينما تحبك سوف تقتنع بكلامك .. وتكف عن مناقشتك ..

— لماذا يصرون على تصويرنا هكذا في صورة مخلوقات عقولها في عواطفها .. مخلوقات لاتفهم ولا تعقل .. ولا تحركها الا نزواتها .. أتم واهمون .. نحن الذين ضحكنا عليكم .. وروجنا هذا الوهم .. وأدخلنا في ذهنكم أننا مخلوقات عاطفية قليلة الحيلة .. وأنكم شطار وأقوياء .. ضحكنا عليكم بهذا الكلام الفاضى لنأكل عقلكم ونأخذ ما نريده .. تماما كما تفعل مع أطفالنا ..

وتصفق أمينة وتقف وتجلس في سرور ..

— أتسمعون ؟! لقد ضحكنا عليكم كما نضحك على أطفالنا .. ويقهقه الأستاذ عزيز ويمسح على رأسه الأضلع ..

— أتن يانساء لاتجدن الا الثرثرة .. ان الله لم يقطع ضلعا من آدم ويصنع منه حواء .. ولكنه في الغالب قطع لسانه وصنع منه امرأة ..

— وخصوصا حينما تكون المرأة محامية مثل فاطمة ... انها لا بد أن تكون مخلوقة من لسان ضانى أصلى .. !

— أنا شخصا أعتقد أن الله قطع أصبع حواء وصنع منها آدم .. ومازالت المرأة الى الآن تصنع الرجال بأصبعها .. انها تشير في أى مكان الى الرجل فيتبعها وما يلبث أن يصبح زوجها .. وأنا في المحكمة أشير بأصبعي وأنا أترافع .. وأنقذ أعناقكم يا رجال من

المشائق .. هكذا بأصبعي فقط ..
وتهلل أمينة في سذاجة .. وهي تحتضن صديقتها ..
— أسمعون .. بأصابعنا .. فقط ..
ويقهقه الأستاذ عزيز ..
— لا فائدة من مناقشة امرأة .. انك تلف وتدور .. ثم تسلم
لها بكل ما تريده .. لأن دمها خفيف .. ولأن لذة ارضائها تفوق لذة
الحقيقة .. أنا شخصياً أرفع الراية البيضاء .. وأسلم ..
— يرافو يافاطمة كسبنا القضية ..
وتضحك فاطمة وتهتف :
— أشكرك .. والآن .. أين مؤخر الأتعاب ..
— لقد أعددت لك عشاء شهيا ..
— رائع .. يا أختي ..
وعلى العشاء كان في امكانى أن أراقب الأستاذ عزيز عن كثب ..
وأ تأمله .. وهو يتكلم ويأكل ويلوح بيديه ..
والأستاذ عزيز قصير القامة ، في الأربعين ، رأسه صلعاء في
منتصفها . ولكن الشعر الأبيض والأسود يكسوها من الجانبين ..
وهو حينما يتكلم يلحق شفثيه بلسانه من لحظة لأخرى ثم يزم
فمه .. فتبدو شفثاه رفيفتين جدا ، وفمه مرسوما في صرامة
وقسوة ..
وهو يتكلم بحدة .. ثم ينفجر في الضحك من تلقاء نفسه ..
ويقهقه بحدة أيضا . وطول الوقت كان عزيز لا يرفع بصره عن

فاطمة . وكان يخيل الكى أحيانا أنه يأكل منها هى .. ولا يأكل من
الطبق .. لأن الطبق كان يفرغ ولا يظن اليه .. ويظل يحملق أمامه
حيث تجلس فاطمة الى جواره . ونهداها النافران ينصبان من
صدرها فى تكور شهى رجراج .. وكنت أحس وهى الى جوارى
بلمس ذراعها .. وبذلك الشعور الأملس الحيوانى الذى يتسرب
الكى من جسمها الطرى الذى يشبه جسم « العرسة » .. فأشعر
بالخدر وأترك كتفى لاصقة بكتفها ثم أعود فأتيقظ وأبفر بعيدا ..
وأنظر الى عزيز وهو يلحق شفتيه .. ويزم فمه .. ويموء كالقطة
وهو يأكل .. وكان الكلام يدور على المائدة عن المحاماة ..
والنفارقات التى تلاقيها المحامية أثناء العمل ..

وكانت زوجتى تتكلم عن قضية الوقف التى رفعناها من سنين ..
ولم نصل فيها الى نتيجة ، وتقرح على أن نسلم القضية الى
فاطمة .. لتعالجها بعقريتها .. وفاطمة تبدى استعدادها ، ثم تنظر
الى ناحيتى وتهمس :

— آخذ فيها ألف جنيه ..

— أنا مستعد .. اكسيها أولا وأنا أعطيك ألف جنيه .

— اتفقنا .. مر على غدا فى المكتب .. لنبدأ فى الاجراءات ..

ولا أدري لماذا أحسست بالخجل فجأة .. كأنى طفل يأخذ
معامدا غراميا .. وضايقتنى احساسى .. ونظرت اليها فى رهبة من
جانب عينى وضبطتني وأنا أنظر اليها خلسة .. وابتسمت .. ثم
ضحكت .. وأشرق وجهها بسعادة آثمة .. وغرور .. ضايقتنى أكثر
وأكثر ..

وشعرت بالغىظ وبميل الى السخرية منها .. فقلت وأنا أضغط
على كلماتي .. كلمة .. كلمة :

— ان كل أمنيتي الآن أن أعيش حتى يصبح كل القضاة نساء ..
وأشاهد فشل كل المحاميات بعيني .

وضحكت فاطمة وهرش عزيز رأسه . بينما أردفت أنا في هدوء :

— اتنا نحن الرجال الذين نكسب لكن القضايا .. أتن تصعب
علينا . ولو كنت قاضيا ووقفت أمامي تبكين حظ المتهم حتى يبع
صوتك ، فاني كنت أعطيك البراءة لمجرد الشفقة .. فأتن مهما
أخذتن الشهادات والدبومات وارتفع صوتكن بالجعجعة ..
ستات .. ولايا ..

فأجابت فاطمة في بساطة :

— حينما يصبح المحامي امرأة والقاضي امرأة فسيكون المتهم
رجلا ولن تهنا القسوة حينذاك لأنها ستقع على دماغكم .. !

— حينذاك سوف تترك لكن الدنيا .. ونذهب لنعيش في القمر
أو في أي كوكب آخر !

— حقا ؟! .. أتستطيعون ؟!

وكانت تنظر إلي وكأنها تقول لي من طرف خفي : « انك
لاستطيع حتى أن تترك الكرسي بجانبى ! .. »

كنت أدخن بشراة بعد العشاء .. وأنظر في الركن حيث توجد
زهرة كبيرة قديمة ، والضيوف من خلفي يثرثرون ويضحكون ..

وفاطمة تحتضن ابني وتقبله .. وصوت البيانو يعلو من أقصى
الغرفة .. فأظن أنه الراديو .. لأن البيانو عندنا مجرد قطعة أثاث
يغلفها التراب من سنين ، ولا يضرب عليه أحد .. ولكنني فوجئت
بندام عزيز جالسة على كرسي البيانو تعزف ..

ودهشت لأني طول السهرة لم أفطن الى مدام عزيز .. لم أحس
بها .. كانت موجودة معنا طول الوقت .. لكن بدون صوت .. لم
تتكلم كلمة واحدة .. وتذكرت أنها كانت تجلس عن يساري على
المائدة طول الوقت .. ولم أنظر إليها .. وكان زوجها عزيز يقف على
مقربة ، ينفث الدخان من سيجار ضخمة .. وقال لي عندما رأيته :
« ان زوجته نادية عازفة بيانو ممتازة »

وسمعت زوجتي تهتف :

— برافو ياناني .. هذا عزف رائع ..

ورفعت نادية رأسها الصغيرة .. ونظرت إلينا .. كان وجهها رقيقا
صغيرا فيه طفولة .. وعيناها السوداوان فيهما قلق وشروء .. وكان
يخيّل لي أنها لاترانا .. وأنها تنظر من خلالنا ..

وعادت الى العزف .. واختفت رأسها الصغيرة خلف البيانو ..
أين سمعت هذه المقطوعة ؟؟ .. واقتربت من البيانو .. وكنت
أرى شعرها المتهدل .. وكتفها المنحدرين وجسمها الضئيل ..
ويدها الصغيرة .. وهي تتقل بسرعة على مفاتيح البيانو ..

وانتهت من العزف .. ورفعت رأسها ببطء .. ودارت يبصرها

فينا ..

ومرة أخرى شاهدت عينيها السوداوين وذلك القلق المبهم ..
والشرود .. والبضباع .. الكامن فيهما ..

كانت تنظر إلينا كأننا غير موجودين .. وتكلم في همس كأنها
تكلم نفسها .. وتبتسم ابتسامة فيها وجل وتردد ..
وقال عزيز :

— ان زوجتي تقرأ كثيرا .. انها دودة كتب ..
واختفى صوته في ضوضاء البيت .. ورنين ضحكات طفلي وهو
يجرى .. وفاطمة تجرى خلفه .. ومرت لحظة صمت .. وسعل عزيز
سعلة حادة ، ثم عاد يحاول اشعال سيجاره الذي انطفأ ..



في تلك الليلة حينما أغمضت عيني لأنام ، حاولت أن أتذكر
الوجوه التي شاهدتها في الحفلة .. وجها .. وجها .. ولكني لم
أستطع أن أجمع أشباتها من ذهني .. كانت صورة فاطمة تلح على
خيالي وتتسلل إلى أعصابي ومعها تميل يخدرني كلي .. صوتها
الجلل .. وملسها الناعم الحيواني .. وصدرها النافر الرجراج ..
والبريق المشع في عينيها .. وشخصيتها الوقحة .. وكلامها المليء
بالاستفزاز ..

واكتشفت أنني نسيت تماما أصدقاء دمشق .. ومشروع دمشق ..
وانزلت من ذهني كل الرغبات وحل محلها شعور واحد مختلط ..
هو فاطمة .. اشتها .. وتقور .. وغيط .. وخوف .. ورغبة في
فاطمة .. رغبة في ايدائها ..

كنت أتخيل أنى أمزق فستانها حتى تصرخ .. وتقول : ارحمنى .
ولكنها لم تكن تقول : ارحمنى .. وانما كانت تضم أطراف
جسدها العريان .. وتنظر الكى نظرة من هذه النظرات التى تبرىق ..
وكنت لحظتها أفيق من خيالاتى .. وأتذكر الميعاد الذى بيننا
فيخفق قلبى بشدة .. وتوترت أعصابى فلم أستطع النوم .. وظللت
أحلق فى الظلام .. وأتقلب فى فراشى .. وأتململ .. وأنفخ .. ثم
أحاول أن أطرد كل شىء من ذهنى لأنام ..

وتضخمت أصوات الليل الخافتة .. فأصبحت جليئة واضحة فى
سمعى .. وبدأت أتبع صوت قطرات الماء وهى تدق على الحوض ..
وتكتكة الساعة .. وطنين موتور الثلاجة ..

وتيقظت زوجتى وسألتنى ان كان هناك شىء يؤرقنى .. فقلت :
لاشئ .. القهوة كانت شديدة وهى التى نبهت أعصابى ..

وسمعتها تروح فى النوم من جديد .. وسمعت تنفسها يزداد
انتظاما وعمقا كلما أوغلت فى النوم .. ثم أحسست بذراعها يحوطنى
وينام وادعا على صدرى .. وسمعت فيها يتمم كلاما لم أتبينه ..
لأشك أنها كانت تحلم حلما رقيقا حنوناً ..

وسألت نفسى فى تلك اللحظة : « ماذا أريد .. ؟! ماذا أريد
بنفسى .. ؟! »

ها أنا ذا الآن زوج يتمتع بزوجة تحبه وطفل يعشقه .. وصحة
وشباب ومال وجاه .. وها أنا ذا أتقلب على فراشى مؤرقا كشخص
مريض تلسعه الحصى .. ماذا أريد ؟! .. ماذا أريد ؟!

وكان السؤال صعبا .. أصعب من الأرق .. وشعرت بالصداع ..
وثقل رأسي جدا .. ورحت في النوم .. نوم قلق تشوشه الأحلام ،
وكلها أحلام من نوع واحد .. يخيم عليها الخوف ..

فأنا في مرة أركب تراما فيخرج عن الخط .. وفي مرة أخرى
أركب سفينة فتشرف على الفرق .. وفي مرة ثالثة أدخل الحمام
فيسرق الخادم هدومي .. وفي مرة رابعة أذهب الى المكتب فأكتشف
أنني نسيت الحذاء .. وأني سرت طول الطريق حافيا .. ينظر الناس
في وجهي باستغراب .. وأنا دائما أقع من آخر دور .. ولا أصل
الى الأرض أبدا .. وأنا أظل أهوى من حالق في ذعر أوشك على
الاصطدام والتناثر كل ذراع في ناحية .. ولا أجد شيئا أمسك
به .. ولا أحدا أنادي عليه .

وحدي .. وحدي .. في الهواء .. بلا أرض .. أقف عليها .

لم يكن نومي نوما .. كان عذابا .. كنت أعاني ..

وحينما فتحت عيني على ضوء النهار .. وشعرت بدفع البيت
حولى . وسمعت ضوضاء الناس في الشارع .. شعرت كأنني خرجت
من جب مظلم تحت الأرض .. وأحسست بالراحة .. ولكنى بعد
ذلك بساعة حينما وقفت أمام المراة أتطلع الى طولى وعرضى
وأناقنى ، لم أستطع أن أنسى ذلك الاحساس الذى ظل يأكلنى
طول الليل .. بأنى صغير وحيد ضائع فى الدنيا .

كل هذا الطول والعرض لم يسترنى وأنا قائم وظللت أنتفض من
الخوف كطفل تركته أمه وحيدا فى الظلام ..

وحيثما كنت أسير في المساء الى مكتب فاطمة المحامية أحمل تحت
أبغى ملفات القضية التي اتفقنا عليها .. عاودني مرة أخرى ذلك
الشعور ..

وأحسست أنني أضرب الأرض بقدمي بشدة .. وأرفع رأسي في
صرامة .. وأقضب جبیني .. لأبعد هذا الإحساس بالضعف ..
وحيثما دخلت مكتبها .. وقابلتني ضاحكة .. شعرت فجأة
بالارتباك .

وسارعت الى الملفات أفتحها ، وبدأت أشرح لها القضية التي
حفظت كل تفاصيلها .. وذاكرتها في البيت جيدا ..

وظلت تصغي ويدها على خدها .. وعينها مسلطتان كالمصباحين
الكشافين على وجهي طول الوقت .. وبعد فترة قضيتها في القراءة
رفعت رأسي ونظرت اليها سائلا :

— هيه ... هل فهمت الآن المشكلة كلها .. ؟

ولكنها انفجرت ضاحكة .. وأغرقت في الضحك ..

— لماذا تضحكين ؟ ..

لأنك جدد جدا .. ولو قدر لك أن ترى نفسك تضحكت أكثر
منى .. أنك تدخل متجهما وفي يدك الملفات وكأنك النائب العام
ثم تخطب الملفات على المكتب .. وتفتحها وتمضي في القراءة بصوت
عال .. ثم تسألني فجأة كأنني تلميذة .. وتقول .. هيه .. هل
فهمت .. أراهن أنك لم تفهم كلمة واحدة مما قلته .. لقد تضحكتني
ياشيخ ..

وتراخت أعصابى دفعة واحدة .. وابتست رغماً عنى .. ووجدت
نفسى أنظر لها فى استسلام .. وقد أيقنت أنى افتضحت ..
وأخذت أتلهى بالنظر الى الغرفة حولى .. الى القماش الأزرق الذى
يغلف الكراسى .. والأباجورة التى تتدلى على تمثال امرأة عارية ..
والى عيني فاطمة اللتين يعربد فيهما الكلام ..

وكان واضحاً أننا نحن الاثنان لانهتم كثيراً بأمر القضية .. وأنا
كلانا نبحث عن مواضيع أخرى تتكلم فيها ..

وقلت وأنا أشير الى الأباجورة :

— أنت أيضاً تزينين غرفتك بتمثال امرأة عارية .. كنت أظن أن
هذا الضعف فىنا فقط نحن الرجال ..

— لقد بحثت عن تمثال رجل عار فلم أجده .. ان الذنب ذنب
النحاتين الذين لا ينجحون الا للنساء ..

وصبت لى الشاي فى الفنجان أمامى .. وبدأت أشرب وقد عدت
الى نفسى قليلاً .. وزال عنى الحرج فلم أعد بحاجة الى الكذب
والكلام فى القضية ..

قضية ايه ؟!

وقلت وأنا أتلفت حولى :

— مكتبك جميل .. لا يبدو أنه مكان تناقش فيه القوانين .. أنه
صالون ..

— انى أحب أن أستمتع بحياتى وعملى .. انى أحيط نفسى هنا
بكل الأشياء التى أحبها .. وأنت تجدد حولى كل شيء .. حتى
الراديو .

وأخرجت راديو صغيرا فى حجم علبة السجائر .. وأدارته فخرجت
منه الموسيقى ..

— ياترى بيتك جميل هكذا مثل مكتبك ؟

— أجمل بكثير ..

— ان زوجك رجل سعيد ..

وضحكت ضحكة جافة ..

— زوجى .. لقد طلقت زوجى من زمان .. ان الحرية أجمل شىء

فى الدنيا .. هل جريت حياة العزوبة ..

— لا ..

— أنت مسكين .. لقد ضاع نصف عمرك .. ان أجمل شىء فى

الحياة أن تعيش لاتعرف ماذا يحدث لك غدا .. !

— ألا تخافين من كلام الناس .. وأنت تعيشين هكذا .. زوجة

مطلقة فى بيت طويل عريض وحدك حرة كما تشائين ؟ ..

— ومن هم الناس الذين أعمل حسابهم ؟ .. كل الناس كذابون ..

ثرثارون منافقون تافهون .. أنا أعطى لهم المثل .. وهم يمشون

خلفى .. ويقلدونى .. ان كل جارة من جاراتى تتمنى أن يكون لها

مكتب مثل مكتبى وعمل ناجح وزوج تطلقه وتعيش حرة مثلى .

ولكنها تقول كلاما آخر حينما تسألها .. لسانها يقطر كذبا وحسدا ..

أتريدنى أن أحسب حسابا لمثل هذه المرأة ؟ .. انى أعيش حياة

واحدة .. فكيف أتنازل عنها لامرأة ثرثارة كذابة .. ولماذا .. لمجرد

أن ترضى عنى .. وماذا يساوى هذا الرضى الكاذب .. ؟!

وقاطعتها فجأة لأقول في نبرات جادة :

— قولى لى .. لماذا حدث الطلاق بينك وبين زوجك .. ؟

وشعرت أنها تضايقت .. ولكنها أجابت فى برود :

— لأنه رجل مغفل .. مثل كل الرجال المغفلين .. يريدنى أن أكون جارية يملكها لا زوجة يشاركها حياته .. يريد أن يجرى ويلهو على كيفه ثم يعود الى البيت ليجدنى راكعة عند قدميه .. أقول له يا حبيبى .. يا معبودى .. وكأننى أرض وقف مكتوبة باسمه .. يتركها خرابة مائة سنة ثم يعود فيجدها مازالت خرابة ..

وقلت لها بهدوء :

— هل كنت زوجة مخلصه ؟

فأجابت وهى تضحك ضحكة مقتضبة :

— ان الاخلاص تعقل لاداعى له .. انه أحيانا يلائم المرضى والمقعدين .. وأصحاب الأعمال الذين لا يجدون وقتا ليعيشوا ويستمتعوا ..

ثم انتفضت فجأة لتقول بغضب :

— ولماذا تطالبون المرأة وحدها بأن تكون مخلصه ؟ .. لماذا لاتطالبون الرجل بالاخلاص ؟ .. لماذا تغتفرون له عندما يخطئ ولا تغتفرون للمرأة ؟ ..

— لأن المرأة تحمل ثمرة خطئها .. لأن خيانة المرأة معناها طفل غريب فى العائلة ..

— وخيانة الرجل معناها أيضا طفل غريب فى عائلة أخرى ..

— عائلة أخرى بعيدة عنا ..

— ياسلام .. ألا تحس بأنك تستحق الشنق وأنت تقول هذا الكلام الفارغ ؟

وعادت الى الضحك وأردفت في دلع :

— وإذا كانت الأطفال هي كل المشكلة .. فيمكن أن نلجأ الى موانع الحمل .. !

— هذا هو الانحلال بعينه .. تصوري زوجة تحمل في حقبة يدها موانع الحمل كما تحمل الزوج وزجاجات البارقان .. هل يمكن لمثل هذه الزوجة أن تهتم بعمل أو بيت .. ؟!

— ولماذا لا تقولون هذا الكلام لأنفسكم يا رجال .. ألا تحملون أمثال هذه الأشياء في جيوبكم أحيانا .. ألا تحمل أنت الآن في جيبتك أحد هذه ال ..

دعني أفتشك .. وهجمت على فجأة لتفتشني .. وأجمتني المفاجأة .. فتركها تعبت في جيوبى وتخرج المناديل .. والمحفظة .. وتفتشني جيبا جيبا بدقة ..

وأخيرا سمعتها تقول في رقة ولطف :

— يا لك من طفل وديع صغير .. انك لا تحمل سوى قطعة شكولاتة .. يا لك من ملاك ..

وداعبت خدى بأصبعها .. واحمر خدائى من الخجل والاحراج وشعرت بالغيظ لأنها تعاملنى هكذا كأنى طفل .. وقلت بجفاف :

— لا تظنى أنى ملاك الى هذه الدرجة .. انى فى الحقيقة شيطان

على طريقتى أحيانا ..

ونظرت التى بخبث :

— أحتا .. أنا لا أصدق .. ان الشياطين لا يقولون عن أنفسهم
شياطين ..

وأردفت فى دلع :

— وما دمت تأكل البونبون والشكولاتة يا شيطانى .. فماذا
تشرب هل تشرب تليو .. ؟!

ومالت على الجرس خلفها لتدقه ..

— سوف أطلب لك تليو ..

واشتد غيظى من سخريتها .. ولاحظت هى أنى مفتاظ .. فسكنت
وقالت برقة :

— هل آلتك ؟ .. لماذا يؤلمكم يا رجال أن تقول عنكم أنكم قطط
صغيرة وديعة ويسركم أن تقول عنكم وحوش .. أتم أغبياء .. أنا
فى الحقيقة لا أحب الا القطط الصغيرة الوديعة ..

— هذا شذوذ جنسى ..

وضحكت ضحكة خليعة ..

— ليكن شذوذا .. ماذا يهمنى .. انى امرأة نباتية معدتى رفيقة ..
لا أحب لحم الحيوانات ، وانما أحب الخضروات الناعمة الغضة
مثلك .. فقلت بغضب :

— أنا لست ناعما ولا رقيقا ..

— حسنا أنت خشن غليظ .. أيرضيك هذا .. أرجوك لا تحاول

أن تكون حيوانا .. ان زوجي كان حيوانا .. كان طويلا وعريضا
وغليظا كالثور .. وكان يخور وهو يتكلم .. وكان يهز الأرض وهو
يشي .. ومع هذا لم أكن أحتمله .. كنت أشمئز منه .. اني لا أطيق
هذا الصنف من الرجال الذي يختال بعضلاته وشعر صدره .. انه
يقززني .. اني أحلم برجل من نوع آخر ، رجل رقيق المشاعر ساهم
النظرات مثلك .. أرجوك لا تحاول أن تلبس أمامي فروة الأسد ..
انك تفقد كل سحرك وتصبح شيئا مضحكا ..

والحقيقة أنها أغاظتني لدرجة أني بدأت أضحك بعصية . ثم
بدأت هي الأخرى تضحك .. وأخذنا نضحك نحن الاثنين في مرح ..
وماذا يهم ان كنت أسدا .. أو قطة .. ما دمت ..
وتلاقت أيدينا على المكتب ونحن نضحك وتماسكت أصابعنا
بعصية .. وتشبث كل منا بالآخر كأنه غريق يمسك بطوق نجاة ..
وخفت ضحكاتنا شيئا فشيئا .. ولكن أيادينا ظلت متماسكة ..
ونظر كل منا للآخر نظرة مليئة بالود ..



— ٣ —

كانت الساعة تدق الثانية بعد منتصف الليل .. وأنا سهران ..
أنظر بعينين مفتوحتين الى النافذة التي تشبه بروازا أسود حول
سماء مرقشة بالنجوم .. وكان الهواء راكدا لزجا .. والجو حار ..
وقد تخففت من ثيابي حتى أصبحت ألبس جلبابا رقيقا على اللحم ..
ومع هذا لم أكن أشعر برغبة في النوم ..

ودق التليفون الى جوارى وسمعت صوت فاطمة تقول فى اعياء
ونبرات مطوطة :

— آلو .. أنت .. ماذا تفعل ؟ ..

— لا شيء .. صاحبة الى الآن ؟ .. ما الذى يقيق حتى هذه
الساعة ؟ ..

— متعبة .. مريضة .. جسمى كله مهدود . انى أحادثك من فراشى
وبطنى يؤلمنى آلاما حادة . وقد خرج الطبيب منذ لحظة بعد أن
أعطانى حقنة ..

— سلامتك ..

— حلمى .. أنا خائفة ..

— خائفة ؟ .. من ماذا .. ؟

— أخشى أن أموت هكذا وحدى أو أنام فلا أصحوا من نومى
أبدا ..

— ما هذا التخريف .. ؟
— البيت حولى يشبه مقبرة فى هذه الساعة من الليل ..
— أليس معك أحد فى البيت .. ؟
— معى الطاهية العجوز وقد سافرت الى البلد ..
— آمنت الآن بأنك لاتستطيعين أن تملئى بيتا وحدك حتى ولو
كان معك شهادة حقوق .. ؟!
— أنت مجرم .. أهذا وقت السماتة .. أى بطنى .. ان النبوة
ستعودنى .. انى خائفة .. أرجوك ..
— ألم تستريحى على الحقنة :
— بطنى .. بطنى ..
— سوف أحضر حالا ..
ولبت ثيابى بسرعة وهرولت خارجا ..
وفى الطريق كان قلبى يدق بعنف فى ضلوعى .. وكنت أسأل
نفسى ما معنى كل هذا .. هل أحب فاطمة .. هل أحبها حقا .. وهل
هذا هو الحب الذى يقولون عنه .. ؟
لا أنكر انى أشعر بسعادة فى الجلوس الى جوارها .. وأتتظر
مواعيدها بلهفة .. وأرتب فى ذهنى كلاما كثيرا لأقوله ثم أنساه ..
وأشعر بخدر فى جسمى وأنا ألمس يديها .. وأصحو على شوق ..
وأنام على شوق .. وأعيش فى انتظار شىء ما كل يوم ..
ان العقل يتعب . ما فائدة التفكير فى كل هذا ..
وكنت أدخن آخر سيجارة فى العلبة ، وأقنع نفسى بأنه لاداعى

للتفكير فى شىء وأدق الجرس ..

وفتح لى تومرجى .. ودخلت فوجدت الطبيب الى جوارها ..
يحقنها بحقنة ثانية ..

ورفعت التى وجهها وبرقت عيناها .. وكان الطبيب يؤكد لها أنه
لم يجد شيئاً فى الفحص .. وأن المص سببه احتقان بسيط فى المبيض
.. وهى مسألة غير مهمة بالمرّة . ويمكن أن تنشأ من البرد أو من
الافراط فى الشراب .. وكانت رائحة الشراب تفوح منها فعلاً ..

وخرج الطبيب وبقيت الى جانبها .. وكان وجهها سعيداً .. وكانت
أساريرها مسترخية فى راحة .. وقد زال الألم تماماً وحلت محله
شقاوة تبدو فى عينيها .. وركنى فمها وهما يرتعشان فى خبث ..

وأمسكت يدي ..

— يدك دافئة .. أدفاً من يدي .. هذا يدل على أن قلبك بارد ..

— ويدل أيضاً على أن عقلك فاضى ..

— سوف أقطع لسانك الطويل هذا .. سوف أقصه بهذا المقص

يا طفلى الصغير ..

وغمرت لى بعينيها ..

— أما زلت تحمل شيكولاتة وبنبون فى جييك .. أين كنت

تتشيطان اليوم ؟!

— لا شىء يؤدبك غير المرض .. لقد كنت نائمة منذ دقائق ساكنة

ومذعورة مثل الفأر .. ما كان يجب على الطبيب أن يعطيك هذه
الحقنة ..

— اسكت انها حقنة لذينة جدا .. لقد قال الطبيب انها هي الحقنة التى يأخذها المساطيل .. وأنا الآن مسطولة .. وبسولة .. والدنيا أمامى مثل حوض كبير حلو ..

— انها ليست الدنيا التى ترغل عينيكَ .. انه الرجل الذى يقف بجواركَ ..

— ها .. ها .. أنت مغرور .. أنا لا أحب الرجال

— ماذا تحبين اذن .. ؟

— أحب البنون والشيكلات .. ها .. ها ..

— اذا كانت حقنة مخدر واحدة تجعلك تتكلمين هكذا .. فانك سوف تصبحين مدمنة خطرة ..

— أنا مدمنة خطرة لكل شيء .. أنا مدمنة لحظات سعيدة .. مدمنة دنيا .. اسمع .. أن الدنيا مثل الأفيون تماما .. طعامها يصيب الجسد بالخدر والهمود .. ورائحتها العطرة تدوخ .. وشمسها تسطل .. ونسيمها يدغدغ الخدود .. وعنبها يسكر .. وخمرها ينسكر .. وكل شيء فيها يسكر .. الدنيا مخدرات ..

— أنت أخطر ما فيها من مخدرات .. !

— اسمع .. انى أحيانا أكون نشوانة للدرجة أننى أشتهى أن أجزى عريانة فى الشارع .. لا .. نلت عريانة تماما ، وانما بالمايوه .. وأتمرغ على الحشيش .. كنت أقول هذا لزوجى .. وكان زوجى يقول عنى : امرأة سافلة .. ويعطينى محاضرة فى الأخلاق والآداب العامة .. أتم يا رجال مغفلون كلكم مغفلون .. كل شيء عندكم

عيب وحرام ومخل بالعرض والشرف .. الحياة كلها فى نظركم شرف
رجل .. أية جريمة عندكم تفتقر .. الا أن يتلوث عرض أحدكم
وتشتهى أخته عين أو تلمسها يد .. عنركم يضيع فى هذه الخرافة ..
مغفلون .. أنتم تضعوننا فى أضرحة وتعبدوننا وتبركون بنا .. ونحن
بشر مثلكم تماما .. تتحرق على لمسة ونظرة وقبله .. ونكلفكم ملايين
الجنهات سنويا ثمن روج وبودرة ومانيكير ونحول الشوارع الى
معارض اغراء تحت سمعكم وبصركم .. وأنتم تأججون بالغيرة لأنكم
حمقى لا تفهموننا .. انا ليس لدينا فكرة اطلاقا عن حكاية العرض
المقدس هذه .. ولا نفكر اطلاقا فى أن نحمل شفاها من القبلات
ونحمل أجسادنا من النظرات .. ونحن تفعل هذا لنضحك عليكم
.. ثم نعيش حياتنا الخاصة من ورائكم كما نحب ونشتهى ..
يا دلاديل :: يا بلهاء ..

— أنت أسفل امرأة عرفتھا .. ولولا أنك تقولين هذا الكلام
وأنت سكرانة ومسطولة لضربتک ..

— يا طفلى الصغير .. انى لم أكن فى وعيى أبدا .. كما أنا الآن .

— أنت تخزيين .. ولو كنت زوجتى لشنقتک ..

— لو كنت زوجتك لما علمت شيئا عنى .. لأنك أبله .. ولأنفقت
عمرک فى عبادتى .. واغلاق السوافذ والأبواب حتى لا تطولنى
الشمس ولضيمت حياتك وعقلک فى الغيرة .. على مدامتك المحصنة
.. فاطمة ونطقت الكلمات الأخيرة فى خلاعة وتبذل .. فقلت لها فى
غیظ :

— أنت أخط زوجة في الدنيا .. هل هذا هو التقدم المنشود الذي
حلمنا به في المرأة المتعلمة ؟! ..

— لا بد أن تفعل شيئاً لتفيقوا .. أن الحياة أوسع وأجمل من هذه
النظرة التناسلية التي تعيشون فيها ، والنظافة التي تحلمون بها ..
وأنتم أقدر خنازير !

واستبد بي الغيظ في تلك اللحظة ونسيت أنها مريضة وأخذت
أهزها بعنف : « أنت الخنزيرة .. أنت أكبر خنزيرة »
وأفلتت مني وأطلقت ضحكة هستيرية مجلجلة . وكان واضحاً
أنها سعيدة جداً بهياجى وغضبى . ولكنى أمسكت نفسى وعدت
الى هدوئى ..

— أأنتم أطفال .. أتوكلكم الحقائق الى هذا الحد .. لافائدة من
اصلاحكم .. حسنا يا شيطانى الصغير . لا تغضب .. نحن نساء
طاهرات محصنات عفيفات لا نرغب ولا نشتهى ولا نعجب ولا نجب
ولا نحس .. نحن لفاقة عرض موضوعة في صرة .. نحن شرفكم
المصون ..

وضحكت فجأة في خلاعة وقالت بصوت مخدر :

— نحن شرفكم .. ها .. ها .. أليس هذا مضحكاً ؟ .. حرصكم
على أن نكون نحن شرفكم .. ان شرفكم أعمالكم يا مغفلون ،
وليس نساؤكم .. أليس عجبا أنكم لا تريدون أن تقبلوا هذه الحقيقة
البسيطة .. آه لقد تعبت .. تعبت .. رأنى بدأ يثقل .. حلمى ..
ان دماغى ثقل جدا .. لا تركنى انى أخاف أن أنام فلا أصحو ..

آه الغرفة تدور .. ضع يدك على رأسي أليس دافئا ..

وأخذت يدي ووضعتها على جبينها .. وتراخت أجفانها وبعد دقائق كانت تروح في النوم .. وأنا الى جوارها .. وصدرها يعلو وبهبط .. وأنفاسها تخرج معطرة دافئة ..

وكانت يدها مازالت تثبت بيدي .. وكانت تتقاذفني احساسات كثيرة متضاربة .. ولكن منظرها وهي تنام في وداعة وقلة حيلة سلبني ثورتي وغضبي .. فأخذت أنظر اليها في حيرة وعجب .. أين ذهب البركان الذي كان منذ لحظات يقذف بالحجم .. أين نامت النار التي كانت تتأجج في هذا الصدر ..

وكانت تمسك بيدي في لطف ورقة .. وأحسست بالحنان رغما عني . ونزلت يدي على خدها وعنقها ولمست صدرها ثم سحبت يدي بسرعة وتمشت في بدني قشعريرة .. وتذكرت ليلة دخلتي بزوجتي .. وكيف كنت أحاول أن أحل عقدة لساني وعقدة غرائزي بأن أشرب الويسكي .. وتذكرت الآن .. وأنا أحاول أن ألجم غريزتي ..

كانت هذه هي الشهوات الحقيقية .. أحسها لأول مرة .. كاملة .. عارمة .. ولا أدري كم من الساعات ظللت أصارع نفسي وأنا جالس في الكرسي أدخن .. ولكنني أفقت من هذا الصراع على صوتها في الفجر يهمس الى جوارى وعينيها وهما تبحثان عني .. وذراعيها وهما تضمانى وتجذباني الى جوارها في ضعف ..

وسمعتها تهمس وهي تحتضنني :

— انك رجل غريب .. ان جسمك بارد مثل الضفدعة ..
وجذبتنى من عنقي .. فى دلع .. وغمرتني بالقبلات ..

كل ما أذكره وأنا عائد الى بيتى هى كلماتها الأخيرة وهى تودعنى
قائلة : « أنت خنزير قدر .. وستقول لزوجتك ذلك .. أم أنك
ستكذب » ومنظر وجهها وهى تقبلنى فى مزيج غريب من السخرية
والحب هامة :

— أما زال فى نيتك أن تشق زوجتك اذا ضبطتها فى أحضان
رجل آخر .. أم أنك فقدت الشجاعة .. وفقدت الشرف أيضا ؟! ..
ولا أعرف بالضبط ماذا فقدت فى ذلك اليوم .. ولكنى تغيرت
كثيرا .. ولعلنى فقدت خوفا ..

ولعل شيئا قد تغير فى شكلى ومنظرى أيضا .. لأن زوجتى قد
لاحظت ذلك وقالت فى قلق :

— مالك .. شكلك متغير ..

— لا شيء ..

— تعبان ؟ ..

— أبدا ..

— الأستاذ عزيز سأل عليك ثلاث مرات بالتليفون ..

وأمسكت بالتليفون وضربت النمرة .. ورد الأستاذ عزيز فى
شوق :

— أهلا يا أخى .. انت فىن .. ؟نا أبحث عنك من الصبح ..

— كنت فى مشوار ..

— طيب تعال .. اخطف رجلك وتعال ..

ولم أفكر فى سؤاله عن سبب هذه الدعوة المفاجئة .. ورجبت
بهذه الفرصة التى تبعدنى عن بيتى قليلا .. وخرجت لتوى ..
أدق الباب على جارنا عزيز .. وفتح لى عزيز بنفسه .. وقادنى من
يدى الى غرفة داخلية وعرفت من الوهلة الأولى لماذا كان عزيز يبحث
عنى طول النهار .. كانت برتية قمار حامية تدور رحاها فى الغرفة ..
وقدمنى عزيز الى ثلاثة لأعرفهم .. الأستاذ فلان .. فلان .. فلان
والفلان الوحيد الذى أحفظ صورته الآن هو اللاعب الذى كان
يجلس فى مواجهتى وهو رجل نحيل ممصوص له شارب كث يغطى
فمه ..

وجلست ألعب وأكسب .. وأقرر فى سعادة كالقطة التى أكلت
جيذا ووجدت مكانا لينا دافئا تتمدد عليه ولم أكن أفكر فى شىء
ولم أكن أرى شيئا سوى الورق فى يدي .. وأبو شنب الجالس
أمامى كالصنم .. يسبح فى موجة من الدخان ..

وسمعت صوت البيانو آتيا من الغرفة البعيدة .. كانت نانى
تعزف .. نفس المقطوعة التى عزفتها يوم عيد ميلاد ابنى ..

وكانت الأنغام تأتى الى أذنى رقيقة حزينة ..

أين سمعت هذه الأنغام ؟ .. آه .. تذكرت الآن انها مقطوعة
الطائر السجين لفرناندو ..

وكانت الأنغام حزينة جدا .. متعالية مترفعة .. كأنها بكاء اله فى

سجنه .. وقطع عزيز الصمت قائلا :

— أتعرفون لماذا نحب القمار ؟ ..

وقلت في هدوء وأنا ألعب :

— لا أعرف .. ولا أريد أن أعرف ..

وقال أبو شبيب :

— ان ألد أوقاتى هى التى ألعب فيها القمار .. انى أنسى كل
شئ .. زوجتى .. وأولادى .. وبيتى .. وعملى .. وأمسى ويومى
وغدى .. أليس هذا هو أجمل شئ فى الدنيا .. ؟

— نعم .. ولكنك تدفع دمك ثمن هذا النسيان ..

— انى أنسى حتى هذا أيضا ..

وفى الحقيقة لم أكن أعلم لماذا أحب القمار .. ولكنى كنت أحس
أن كل لحظة أثناء اللعب تبدو لحظة مهمة جدا بالنسبة لى .. وهذا
فى نظرى سبب كاف لأحب أى شئ ..

وضايقنى أن أفكر هكذا .. وفقدت شهيتى للعب .. فأهديت
الجنهات العشرة التى كسبتها لعزير .. وجلست وحدى بعيدا ..
أتفرج عليه وهو يخسرها ثم يكسبها .. ثم يخسرها من جديد .. ثم
يكسبها .. ثم يخسرها .. ثم يكسبها .. ثم يخسرها .. ثم يكسبها
وكان قد بدأ يصبح غضيبا .. وأصبح يريد أن يتخلص منها
فيخسرها الى الأبد .. أو يلقي بها من النافذة .. !

واستبدت بى رغبة فى الضحك ، فضحكت بصوت عالٍ .
والتفت الى أربعة وجوه فى وقت واحد . فى دهشة ..

ولم أكن أعرف أن منظر القمار من بعيد يبدو مضحكا الى هذا الحد .. ولكنه في الحقيقة كان يبدو لى في تلك اللحظة مضحكا جدا ..

وأشد ما كان يضحكنى هو منظرهم ، وسحتهم المقلوبة .. وأعصابهم المشدودة ..

ماذا يريدون بالضبط ؟! .. وماذا أريد أنا أيضا ؟! .. وعاد الطائر السجين يغرد .. بأنغامه الحزينة ..

وانقبض قلبى بشدة كأن يدا من حديد قد أمسكت به واعتصرته ، حتى كادت روحى تخرج منى ..

وأحسست فى تلك اللحظة أنى فى حاجة الى صاحبتى لأكلهما .. وأبكى على صدرها كالطفل .. وأقبلها .. وأحتضنها .. وأفقد وعيى بين ذراعيها ..

واستأذنت من الجباعة لأنصرف .. ونظر التى عزيز نظرتة الى رجل غريب الأطوار .. وقلت له مازحا :

— ان جنيهاتى العشرة جنيهات منحوسة .. انك لن تستطيع أن تكسبها .. ولن تستطيع أن تخسرهما .. ولن تستطيع أن تنفقها .. انها كاللعة الفرعونية لا حل لها ..

وخرجت ..

وصافحت أنقى نسات الصيف العلية فآثرت أن أمشى وتركت عربتى فى الجاراج .. وسرت أمتاف الهواء فى خياشيمى .. وأهز يدى جانبى .. وأنظر الى الناس .. وكل واحد فيهم يسير ملفوفا

فى مشاكله كأنه دنيا صغيرة .. لا يفىق منها الا لحظات ، يتلفت
حوله . ها هو واحد يعرفه .. وأهلا وسهلا . كنت فىن . مضى وقت
طويل لم نرك . لا يد أن تزورنا يا أخى .. ثم يعود فىغطس فى دنياه
وىلق باب قمرته . وىجر الى الأعماق البعيدة فى نفسه ..

وىجر .. يجر الى أين !!؟

وتشوقت الى شاطيء .. الى حبيبتى .. كنت فى حاجة الى لحظة
راحة .. لحظة سكون .. لحظة عدم تفكير فى أى شىء ..

وىبدو أنى مشيت كثيرا ، لأنى بدأت أحس بألم فى عضلات
ساقى قاتجته الى بيت فاطمة .. وكان أول شىء فعلته حينما وصلت
أنى رفعت السماعة وطلبت زوجتى وقلت لها سأغيب لمدة ثلاثة أيام
فى سفر الى البلدة لأعمال ضرورية

وكانت فاطمة واقفة الى جوارى تضحك بصوت خافت وحينما
وضعت السماعة قالت فى سخرية :

— لقد أصبحت خنزيرا عريقا فى الخنزيرية .. انك تكذب دون
أن يطرف لك رمش .. هذه قدرة غير عادية ..

وكانت واقفة بقميص النوم .. أمام المراة .. وكانت تبدو
كحيوانة .. حيوانة لم تهذب فيها الثقافة شيئا . وانما أطالت أظافرها
وشحذت غرائزها .. وأعطتها القوة .. والجرأة .. والوقاحة
.. وتركت المراة لتقبلنى فى فمى ..

وقلت أذكرها :

— ماذا ستفعلن فى قضية الوقف ؟ ..

فأجابت ضاحكة :

— ان الوقف هو أنت وقد حللنا الوقف .. لم تعد خرابة موقوفة على زوجتك كما كنت زمان .. وانما أصبحت ملعب كرة .. أليس هذا انتصارا رائعا .. هل رأيت دفاعا يفوز بالحكم بهذه السرعة ؟ ..

— لا أظن أن الأمر قد تغير كثيرا .. فقد تحولت من خرابة موقوفة على زوجتى الى خرابة موقوفة عليك .. ومعنى هذا أننا سوف نحتاج الى محامية أخرى لتحل الوقف من جديد .. ان المشكلة ما زالت باقية ..

— آه .. ماذا تقول ؟ .. انى أذبحك .. وأتغذى على لحمك اذا حدث هذا .. ان القضايا عندى تخرج من يدى الى القبر قبل أن تخرج الى يد أخرى .. ان المرأة التى تنافسنى لم تخلق بعد .. هل تسمع ؟!

— هل أفهم من ذلك أنك تطالبينى بأن أكون مخلصا ؟

— هل أفهم شيئا واحدا هو انى أحبك ..

— وهل يعنى هذا أنك تكونين مخلصه لى ؟ ..

— أوه .. هذه مسألة أخرى ..

وجذبتها من شعرها فى غيظ :

— تعال .. هنا ..

ونظرت الى ثم ضحكت ..

— يا صغيرى .. انك تصبح رائعا حينما تغضب .. انى أموت فى غضبك ..

وراحت تقبلنى وهى تهمس .

— انى أغفظك .. أثيرك فقط .. أنت تعلم كم أحبك ..
وقبَلتْها فى شفتيها وأنا أقول :

— أنت امرأة مجنونة تماما .. وأنا أحبك لأنك مجنونة ..

— يا شيطانى .. يا طفلى الصغير الجميل .. يا حبيبى ..
يا جنونى ..

— أحبك .. أحبك .. يا أخطأ امرأة فى الدنيا ..

— وأنا أعبدك .. يا أخطأ رجل فى التاريخ ..

— يا حيوانة ..

— يا مسكين .. لماذا تبدو دائما مسكينا حتى وأنت تقسو
وتشتى . لماذا تبدو عيناك مسكيتين وأنت تكذب وتخطئ وتأثم ..
لماذا تبدو بريئا تعسا دائما .. لماذا لا يفارق الأسى والحزن عينيك ..
لماذا تبدو طفلا شقيا يتيما . ان ضعفك يفقدنى صوابى . كم أتمنى
أن أفهمك . كم أتمنى أن أسعدك . لماذا تبدو قلقا مشتتا هكذا .
انك تنظر الى كأنك لا تعرفنى .. تنظر الى بلا عقل .. بلا أمل .
ما الذى يعتصر قلبك ؟ .. ما الذى يوزع خواطرك هكذا ؟ ..
ما الذى يبلبل تفكيرك ؟ ..

وأخذت تهزنى بشدة :

— أنظر الى .. الى أنا .. لا تنظر هكذا كأنك تحملق فى الهواء

.. حلمى .. حلمى ..

— ماذا أفعل وهذه هي حقيقتي .. ماذا أفعل ؟ .. أنا مسكين فعلا
مسكين جدا .. جدا ..
وبكيت .. بكيت بحرقة على صبرها ..



كانت فاطمة تجلس وسط الغرفة ملفوفة بفوطة وقد خرجت
لتوها من الحمام .. وشعرها كله مبتل ومرجّل ومنقوص الى
فوق .. وهى تفكه وتسرحه وتضع فيه البنسات .. وظهرها الى
ناحيتى .. وأنا فى الفراش يجثم على أنفاسى الملل .. وأتمنى من
أعماقى أن تتركنى وحدى وتذهب الى أى غرفة أخرى ..

وسمعتها تدندن بنفسها .. ثم تقوم وتذهب الى المطبخ . وتنفس
الصعداء .. ونسيتها تماما .. ونمت .. لم أتذكر أنها معى الا حينما
أيقظتنى وفى يدها كوب من عصير البرتقال ..

وكانت عيناها طيبتين وديعتين .. وقد انطفأت منهما الشراسة
القديمة .. وحل محلها خضوع أليف .. وناولتنى الكوب .. وقبلتنى
فى خدى وقالت فى رقة : « أتجننى يا حلى .. »

فقلت وأنا أغتصب الكلمات اغتصابا : « نعم .. »
وشربت الكوب فى جرعة واحدة ..

ونظرت الى فى عيني .. ولكنى أبعدت عيني عنها ..
وقالت فى نبرة حزينة : « أنت لا تجننى .. »

فقلت فى هدوء وقد أحسست أنه لا فائدة من المضى فى الكذب .

— نعم ..

— اذن لماذا فعلت كل هذا .. ؟!

— لا أدري ..

وسكنت لفترة طويلة ثم قالت فى ألم :

— ألن نلتقى بعد الآن .. ؟!

ولم أعرف بماذا أجاب ..

ولأول مرة منذ عرفتها رأيت وجهها المتكبر يتضعع أمامى ثم
يتهاوى فى بكاء مر ..

وغمغت من خلالها دموعها :

— ألم تشعر معى بلذة .. ؟!

فقلت فى صدق :

— شعرت باللذة التى لم أشعر بها أبدا فى حياتى ..

— اذن لماذا تتركنى هكذا ؟ .. وماذا كنت تريد لتجنبى ؟ ..
وتضععت الكلمات فى فمها من جديد ..

ولم أعرف بماذا أجاب .. ولا ماذا كنت أريد منها .. ولا ماذا
أريد من نفسى ..

— هل أنا قيحة .. ؟!

وأزاحت القوطة المبتلة لتكشف عن جسمها الجميل المندى بالماء
.. وبحثت بعينى فى جسمها .. ذلك الجسم الذى كان يفتنى
ويصينى بالدوار كلما لمست .. وأحطتها بذراعى .. ولكنى لم
أحس بشيء اطلاقا .. وبحثت فى عينيها عن المرأة الجريئة المستهتره
الوقحة التى كانت تنتفض بالتحدى ولكنى لم أجد غير امرأة
منكسرة ..

وخيّل التي من نظرتها أن عمرها قد زاد عشر سنوات ..
ولم أعرف ماذا أحبته فيها ذات يوم .. ولا ماذا أكرهه فيها
الآن ..

كل ما أعرفه أني كنت أشعر بالملل .. وبحاجة شديدة الى أن
أصبح وحدي

أما هي فكانت تنظر التي في أمومة وحنان وتربت على كفي
قائلة :

— أيت مسكين

وتبكي وتمسح دموعها .. وتغمغم :

— ولكني أحبك .. ولا أقوى على فراقك أبدا .. أبدا .. ولم
يحدث أن أحبت رجلا كما أحبتك .. ولا أعرف ماذا أفعل
لتجني .. ماذا أفعل .. ؟!

وكفكت دموعها وهمست في حيرة :

— أريد أن أعرف ماهو الحب .. منذ أيام كنت ألهو معك كما
ألهو مع أي رجل .. كنت في نزوة شقاوة .. وكنت أتسلى .. وأقضي
وقت .. كعادتي .. دائما .. وما أكثر الأوقات التي قضيتها كامرأة
مطلقة فاضية ليس وراءها مسئوليات ولا مشاغل .. وكانت أوقاتي
تنتهي .. وتنتهي معها نزواتها .. ولكن ها أنذا الآن أمام احساس
آخر تماما .. وقت لا يريد أن ينتهي .. ونزوة لا تريد أن تشبع .. ماذا
حدث لأحبك .. وماهو سر هذا التعلق الذي يعذبني .. وهذا أنت
جالس أمامي .. ضجر ملول .. تتأفف .. وتكاد ترفضني ..

— ولهذا تحينى .. انه ليس حبا .. ولكنه كرامة مجروحة ..
وأثوثة مهينة .. أنت تريد أن تمدى فى هذا الوقت على أمل أن
تنتهى الى نهاية تنصفك .. انه ليس حبا لى .. ولكنه حب لنفسك ..
— أنت مسكين .. أنت لاتصدق حتى هذه الحقيقة البسيطة ..
انى أحبك .. ماذا أفعل لتصدقنى ..؟!؛

— أنت مدمنة لحظات سعيدة ليس الا .. أنت مدمنة دنيا ..
مدمنة « مخدرات » اسمها الرجال .. أليست هذه هى فلسفتك
وكلماتك بالحرف .. وها أنت تقولين الآن أنك تحيننى وتدوين
حبا ..

— انى أحس باحساس جديد .. لم أعرفه أبدا ..
— أليس من الطبيعى أن نشك دائما فى الأشياء الجديدة ؟ ..
وخصوصا حينما تكون غير طبيعية وغير متمشية مع شخصياتنا ..
والحق انى كنت أشعر بشيء ما فى شخصيتها لا أرتاح اليه .. شيء
غير طبيعى ..

لم تقو اللذة الجسدية التى جمعتنا ثلاثة أيام متوالية على أن تغلب
على هذا الشعور .. وظلت علاقتى معها بالجسد وحده .. بينما روى
تهوم بعيدة نافرة .. !

وكانت لذاتى يعقبها الضيق والندم والهوان .. لأنى تركت جسدى
يسوقنى ويجرنى كالدابة ..

وكنت أفيق أحيانا .. فأتمنى أن أخرج .. أهرب ولو من النافذة .
وحينما ضعفت فى لحظة .. وبكيت كالطفل .. وكشفت لها عن

عذابی .. خجلت ..!

خجلت جدا كأنى.. تعثريت أمام انسان غريب لا أعرفه ..
وأحسست بما هو أكثر من الخجل .. بالكراهية .. وبالنفور منها
لأنها رأت ضعفى هكذا خلسة .. وساورتنى الرغبة فى الفرار ..
ولم يعد وجودها حولى يسعدنى .. وانما أصبح يفضى بى الى
توتر مبهم لا أدرى سببه ..

أنا مسكين .. نعم مسكين .. مسكين ..
ولكنها انसानه غريبة لا أعرفها .. فلماذا تدخل غرفتى الخاصة ..
وتنكش فى أدراجى .. وتعبث فى نفسى ..
أنا لا أريد عطفها ..

وكانت تبكى فى هذه اللحظة .. ولكنى لم أكن أسمعها جيدا ..
كنت أسمعها بأذنى فقط .. ولكنها لم تفقد الأمل .. وسمعتها تقول
فى مرارة :

— هذه أول مرة فى حياتى .. يفعل بى رجل ما فعلت ..
وضايقتنى هذه الملاحظة .. هل تريد أن تفهمنى أنها كانت مناورة
منى .. وعادت تقول فى مرارة :
— كنت أنا التى ألهم بالرجال .. كنت أنا التى أرفضهم .. وأكسر
قلوبهم .. ماذا حدث لى .. ؟!

وأخذتها الكبرياء فجأة فهبت واقفة ثم تركت الغرفة .. وغابت فترة
طويلة عادت بعدها بكامل لبسها ووقفت تضع الروح أمام المرأة ..
وهى تقول فى جفاف :

— أنا أكرهك .. ومن أنت حتى أحبك ؟! .. أنت رجل مثل أى رجل .. انى أستطيع أن أعود كل ليلة بحفنة من أمثالك ..

ثم ضحكت ضحكة رنانة وأردفت :

— هل صدقت حينما قلت انى أحبك ؟ .. انى أضحك عليك ..
وتلك عاداتى: دائما حينما أريد أن ألهو .. فأنتم لا تعجبكم الا الكذب
لأنكم أنتم أيضا كذابون وعواطفكم كاذبة ..

وسكتت فجأة لتقول :

— أظن أن هناك فى الدنيا شيئا اسمه حب .. ؟!

وأجبت فى اخلاص :

— لا أدري ..

— هناك ليال كتلك التى قضيناها معا .. يذهب بعدها كل واحد
الى حاله .. ولا يوجد شيء غير هذا .. أما بقية الأشياء التى يرويها
الناس فهى أكاذيب .. الوعود أكاذيب .. العواطف أكاذيب ..
الاخلاص كذبة تستعبدوننا بها لنكون لكم طول حياننا ثم تلعبون
أنتم على كيفكم ..

وأحسست أنها عادت فأصبحت فاطمة .. التى عرفتھا ..

وأحسست أيضا .. أنها تكذب .. وأنها أيضا كانت تكذب ..
وأنها دائما تكذب ..

وأن هذا الشيء غير الحقيقى فيها هو الذى ينفرنى ..

وأن هذا الشيء هو المسافة الشاسعة التى ظلت قائمة بيننا .. والهوة

التي لم تستطع لذة الجسد أن تعبرها لتوثق بيننا أواصر الحنان
والمودة ..

ونظرت اليها .. هذه المرة في عطف .. فقد كانت هي الأخرى
مسكينة .. وكانت تمشط شعرها في المراة .. وتمضغ اللادن في صوت
مسموع .. وتطرقع بأسنانها وهي تمضغ .. لتحدث صوتا ..
وكان سكوتنا ثقيلًا كريها .. وكان يشوش على آذاننا أكثر
من الضجة .. !

وقمت من الفراش .. وبدأت أرتدى ثيابي ..
وحيثما نظرت الى المراة .. لم يعجبني وجهي .. كان يبدو بليدا ..
وتذكرت اللحظة التي دخلت فيها منذ ثلاثة أيام حينما نظرت الى
وجهي في نفس المراة .. وكان يبدو مشحونا بشيء آخر .. أمل ..
أو حلم .. أو نشوة .. !

كان أجمل بكثير من الآن ...
ونظرت اليها .. كان وجهها هي الأخرى معتما .. !
واتجهنا الى الباب في وقت واحد ..
كان كلانا يشعر برغبة في الخلاص ..
وعند الباب تصافحنا في برود ..
ثم تبادلنا نظرة طويلة .. هي مزيج مختلط مشوش من كل المسرات
والآلام التي أحسنا بها طيلة هذه الأيام الثلاثة ..
وبقينا لحظة صامتين .. ثم انصرفنا مسرعة ..

وخرجت لأمشي بدون وجهة .. وأنا أشعر في داخلي بحرية
لا تقع لها ..

وتذكرت ميعادي مع الخواجة متری .. التاجر المعجوز في
البورصة ..

ونظرت الى ساعتى .. كان باقيا على الميعاد نصف ساعة ..

ومشيت في هدوء في طريقى الى البورصة ..

ترى ماذا يريد منى الخواجة متری .. ؟

وفي البورصة كان متری واقفا ينظر في ساعته بعصبية وينظر الى
الباب .. وحينما رآنى تهلل وجهه وأخذنى تحت ابطه .. وخرجنا

وسألنى عن مشاريعى وعن حال الزراعة والأرض فى الصعيد ..
وقلت :

— الأحوال بخير ياخواجه ..

فضحك وهو يجاوبنى :

— انت دائما تنادينى ياخواجه .. الظاهر أنك تعتقد أنى خواجه
صحيح ..

— ان مظهرك خواجه فعلا .. !

واستغرق فى الضحك ثم أردف :

— يا حبيبى أنا صعيدى بن صعيدى .. يظهر أنك لم تذهب الى
الصعيد أبدا .. انهم هناك يسمون الذى يلبس بدله خواجه .. لقد
عشت فى الصعيد أربعين سنة .. ولى ذكريات مع والدك حينما كنا
نكافح معا هناك أيام الشباب ..

وأخذنى الى مكتبه .. وأشعل سيجارا .. وبدأ يتكلم فى نبرة جادة :

— لقد استدعيتك لأعرض عليك فكرة مشروع نشترك فيه سويا .. انى أفكر فى افتتاح مكتب للتصدير والاستيراد برأس مال ثلاثين ألف جنيه .. مارأيك .. ؟!

ولم أجاب .. وانما أخذت أفكر وقال هو :

— طبعا انت فرحان بالفدادين التى ورثتها .. وكل همك أن تنام عليها مثل كل الأعيان .. اسمع كلامى ان الأرض لم تعد وسيلة للمكسب .. ان مكسبها الآن تعبان .. وخصوصا لمن يؤجرها مثلك انى أعرف الصعيد وأحواله . اننا الآن فى سنة ٥١ والأزمة فى قمتها .. الفلاح يتأجر الأرض الآن ولا يسدد شيئا من ايجارها لسبب بسيط لأنه مدين بكل شئ .. مدين بسقى الأرض لصاحب وابور الماء ، ومدين بتسميدها لوكيل شركة عبود ، ومدين بزراعتها لبنك التسليف .. حتى محصولها يباعه سلفا بالبخص للمرابى على سلفة عشرة جنيهات يعيش بها .. وفى النهاية وبعد كل هذا الكدح يكسح النيل زراعته ويغرقها .. ماذا تستطيع أن تفعل أنت أيها المالك مع مثل هذا الفلاح .. ان كل ماتقدر عليه هو أن ترفع عليه قضية اخلاء .. ثم تأخذ حكما بالاخلاء .. ثم لا يجد الفلاح حلا سوى أن يطلق عليك الرصاص .. أو يتأجر عليك الخط وعواد .. وهذه آخره الأرض .. ومشاكلها .. !

انك لا تعرف الفلاح فى الصعيد .. انه مازال يستشير حمارته كل

يوم وهو ذاهب الى السوق .. ويسألها هل يبيع القمح أم لا يبيعه ..
فاذا رفست برجلها .. عاد أدراجه ولم يبع شيئاً .. !

وأنت تريد أن تضع رزقك وعمرك وأرضك في يد هذا الفلاح ..
وتنتظر أن تصبح غنياً .. كلام فارغ .. اسألنا نحن .. نحن جئنا
من قبلك كل هذه الأشياء .. ان سر الغنى في التجارة .. وليس
في الزراعة ..

— وماذا تريدني أن أفعل .. ؟

— تتخلص من هذه الأرض النحس وتشتغل معنا في المكتب ..

— واذا لم نجد شيئاً نصدره أو نستورده .. وأنت تعلم ظروف
التجارة الخارجية وقيودها ..

فضحك ضحكة صفراء .. وقال :

— نبيع أدوات الاستيراد نفسها .. وتاجر فيها .. !

فقلت في تردد :

— ألا يعتبر هذا عملاً غير قانوني ؟

فضحك ضحكة أكثر اصفراراً وأردف :

— وأى شيء حولك قانوني ؟ .. ان كل شيء غير قانوني .. ان المال
الذي تعيش منه غير قانوني .. !

ان المائة فدان التي ورثتها عن المرحوم والدك .. كان شراؤها
على يدي . وكانت تقودها من ألعيب البورصة التي قمنا بها
بالاشتراك مع سماسة فاروق وابتعت بافلاس أكبر البيوتات التجارية
والحكائية كانت لها جدي في كل الجرائد .. ولم تكن قانونية بالمرّة ..

لقد كتبنا عقودا بأكثر مما نملك من أرصدة قطنية .. وهذا تزيف ..
وهكذا ارتفعت الأسعار بالكذب .. وكسبنا ألوف الجنيهات
والفدادين !

ويظهر أنه لاحظ الحرج الذي بدا على وجهي فأسرع يقول :
.. وهذا حال التجارة دائما .. ليس في التجارة شيء اسمه قانون ..
التجارة في حقيقتها هي تنظيم النصب .. والاثراء بعقد الصفقات على
الورق فقط بدون شقا .. وبدون عرق ..

حينما يكون لك مكتب استيراد وتصدير فانك سوف تشارك في
ربح المصنع وربح الدكان .. دون أن تعمل شيئا أكثر من أن تجلس
على مكتبك وتحرق عقودا .. أليس هذا أفضل من المناكفة مع الفلاحين
المعدمين في الصعيد ..

ان النصب في كل مكان حتى في الزراعة .. وأنت حينما تقاضى
فلاحا مدينا لا يملك سوى ذراعيه وتخرجه من أرضك .. ألسنت
نصابا ؟!

ان النصب في كل مكان .. يظهر انك جديد على أمور الدنيا ..
ان الدنيا يا حبيبي نصب في نصب ..

فكر في المشروع الذي عرضته عليك .. لقد كنت أحب أباك
وأتفائل بالعمل معه .. وأنا أريد أن أتعاون معك .. سوف أتركك
يومين ثم أكلمك مرة أخرى ..

وصافحني .. وأوصلني حتى الباب ..
وخرجت .. وكل شيء يدور في دماغي كالدوامة .. !

وكان الحديث القصير الذي تبادلته مع الخواجه م ترى صدمة
لأعصابي ..

فقدت الكثير من ثقتي .. وإيماني .. دفعة واحدة ..

وأحسست بالقسوة الشديدة ..

كان كلام الخواجه م ترى فيه قسوة .. سودت الدنيا في وجهي
كان فيه اتهام لوالدي .. ولثروتي .. وللنعمة التي أُمِرِح فيها ..
لا فائدة .. الدنيا نصب في نصب .. تمامًا كما تقول فاطمة .. !

هل صحيح أن الدنيا نصب في نصب ..؟

الحق أني لم أجد حجة أقيّمها على كلامه .. !

أنا نفسي كنت أقوى اثبات لهذا الكلام .. فمنذ ثلاثة أيام وأنا
أخون زوجتي مع امرأة لا أخبها بدون سبب واضح ..
ومع هذا فقد كنت أشعر أن كلامه كذب .. كذب .. الدنيا ليست
شرا كلها .. ولا أنا شرير كلي ..

القلق يهزني في داخلي .. أنا أتعذب ..

كلنا تتعذب .. ونبحث عن حل على قدر فهمنا ..

وذهبت الى بار ماسبيرو .. وطلبت كوبا من النبيذ .. وكانت
الوجوه حولي تثبت لي أننا جميعا مساكين ..

كان كل واحد يحملق في الهواء .. كأنه يطارد ذبابة وهمية ..
وجلست أحصى الزجاجات على الأرفف .. وأحصى الوقت الذي
تستغرقه الزجاجات لتفرغ .. وأحصى في دماغي عدد الشوارع وعدد
البارات .. وعدد سكان القاهرة .. وعدد سكان العالم .. وما يشربه

الناس من السم كل ساعة ١٠٠!

وكانت نتيجة الاحصاء مضحكة .. خمسة ملايين زجاجة ويسكى
يشربها سكان العالم كل ساعة .. ألا يبحث هذا على الاشفاق ؟
وأخرجنى البارمان من تصوراتى ، وهو يملأ كوب النبيذ قائلا :
— أتعرف مم يصنعون هذا النبيذ الفاخر ؟ .. لقد رأيت العنب
بنفسى فى بوردو . كل حبة مضيئة .. كأن الشمس معبأة فى داخلها ..
— أنا لم آت هنا لأشرب الشمس .. لقد جئت لكى آخذ ضربة
على رأسى .. ابحث لى عن نبيذ آخر مصنوع من الصرم القديمة ..
وضحك البارمان وقرب منى صحننا به جامبون .. وهو يهمس :
— وهذا جامبون طعمه كطعم القبلات ..

ووقف ثلاثة من الشحاذين يعزفون البيانولا أمام البار ، وبدأوا
يلعبون .. ويصرخون .. ويضحكون .. ودخل أحدهم يجمع القروش
فى قبضته وكان وجهه مدهونا بالسيداج وعليه لقطتان حمراوان ،
وكان فمه يضحك .. ولكن عينيه كاتتا حزيتين جدا ! ..

وكان طعم الجامبون ألد من طعم القبلات فى فمى . وكانت
الموسيقى سخيفة ، ولكنى طلبتها مرتين حتى تصدعت رأسى .. وكان
البارمان واقفا أمامى يلوى شففيه فى اشمزاز :
— ما الذى يعجبك فى هذه الدوشة .. ؟

— ان مفعولها أسرع من مفعول نبيذك الفاخر .. !

— انك لن تعرف طعم نبيذى وأنت تشربه هكذا وحدك على أنعام
البيانولا .. أنت فى حاجة الى عادة هيفاء عيونها سود .. تنظر اليك

وتنظر اليها .. والى شيء هنا فى قلبك يأكله من الداخل ..

— حينما يكون هناك شيء فى قلبى يأكله .. فان كل شيء أشربه
سوف يتحول الى نبيذ .. سوف تكون المياه العادية نبيذا .. لن أكون
فى حاجة الى من يعصر لى عنب بوردو ويعبئ لى الشمس فى زجاجات
سوف أكون أنا الشمس التى تشع فى كل الزجاجات . احمد ربنا
ياخواجة على أن قلبى فارغ .. وانى آكل بعضى . فلهذا جئت اليك ..
ولهذا يأتيك الزبائن كل يوم ، وتجد رزقك ..

— أنت فيلسوف يا أستاذ حلمى ..

— أتظن ذلك .. ؟!

— وهذا مفعول نبيذى أيضا فهو يصنع فلسفة فى المخ .. ان كل
الفلاسفة متخرجون من عندى .. !

وجرعت الكوب دفعة واحدة .. والظاهر أنى كنت أريد أن أخرج
بسرعة .. واختفى البارمان .. ونسيت أن أسأله .. أين يذهب
المجتهدون فى الشرب .. هل يصبحون أساتذة فى الفلسفة .. أم
يصبحون مجانين ؟!

وكان فى الركن رجل عجوز أمامه زجاجة براندى كاملة .. وكان
يتحرك بصعوبة .. ويسعل سعالا جافا .. ويصيب فى جوفه الكأس
بعد الأخرى ..

.. حينما كنت أعود فى المساء الى بيتى .. ويدائى فى جيوبى .. كنت
أسأل نفسى : ما الذى يجعل هذا العجوز يجلس كل يوم ويفرى
كبده هكذا .. ؟!

وكنت أرى في الظلام وجهه الترابي المريض .. وأسمع سعاله
الجاف وأتذكر كلام الخواجه متری .. بأن كل الناس وحوش ..
يفترسون بعضهم البعض .. ولا أصدقه .. لا أصدقه أبدا ..

اتنا نقتل أنفسنا .. نحن مساكين .. !

ودخلت البيت .. وغمرني الضوء الشديد في الصلاة .. واستقبلتني
زوجتي متهلة .. وسألتني عن حالة الزراعة في البلد ..

وتذكرت أنني كذبت عليها لأتغيب هذه الأيام الثلاثة .. وأجبتها
وأنا أتجنب النظر في عينيها :

— كل شيء على مايرام ..

— وماذا فعلت مع علوان .. ؟

— ومن هو علوان هذا .. ؟

— الرجل الذي أحرق الذرة .. لقد حسبت أنك حضرت الحادثة ..

لقد وصل خطاب من البلد وفتحته على أمل أن يكون خطابا منك
ولكنه كان من ناظر العزبة يروي فيه ماحدث من علوان .. وحادث
احراق الذرة ..

فقلت بارتباك :

— آه .. هذه الحكاية .. لقد سووها حينما وصلت والحالة الآن

هادئة تماما ..

وقالت وهي تضم يديها الى صدرها :

— الحمد لله .. لقد كنت قلقة عليك ..

ولم يد عليها أنها تشك في شيء ..

وكانت غرفة الاستقبال مضاءة وقالت لى أن مدام عزيز عندنا ..
وأنها سهرانة عندنا الليلة لأن زوجها مسافر الى الاسكندرية ..
وصاحت : نانى .. نانى .. لقد جاء حلمى .. وخرجت نانى .. وكانت
تلبس فستانا أسود وتضع على كتفها وشاحا أحمر ، وكان الوشاح
الأحمر يلمع على جسمها الصغير كأنه فص من العقيق ..

وتصافحنا .. وعادت الى مقعدها وكان فى يدها « بلوفر » تشتغل
فيه .. وكانت تنحنى على التريكو وهى تعمل ويتدلى شعرها كالبارفان
فيخفى وجهها .. ومن حين لآخر كانت تمد يدها وتزيح شعرها فتبدو
أهدابها الطويلة تختلج فى اضطراب .. وكنت أحس وأنا أنظر الى
أهدابها أنها تفكر .. وأن عقلها يضطرب وراء تلك الأهداب .. وقلت
لأخرجها من صمتها :

— لقد سمعتك تعزفين البيانو كأعظم موسيقية فى الدنيا ..
فرفعت رأسها الصغير وابتسمت وتورد خذاها .. ونظرت الى فى
امتنان .. ولم تتكلم .. وقالت زوجتى :
— انها ترسم أيضا .. ولها أشغال « كائنات » رائعة .. انها فنانة ..
أنظر هذا مفرش اشتغلته لنا ..

— رائع .. رائع .. أين تجدين الوقت لعمل هذا كله .. ؟
وصمتت نانى لحظة قبل أن تجيب ، ثم قالت وهى تنظر الى
الأرض :

— ليس فى الدنيا شيء أكثر من الوقت .. ان لدى دائما وقتا
طويلا .. طويلا .. أريد أن أتخلص منه ..

ورفعت رأسها لتتنظر الى نظرة خاطفة ثم عادت تعمل في سرعة وعصبية .. ولكن هذه اللحظة كانت كافية لأن أرى عينيها ..

أرى الوحدة .. والغربة .. والاستسلام الحزين الكامن فيهما .. وكانت تتكلم بصوت خافت كأنها تكلم نفسها .. ولم أعرف ماذا أقول بالضبط ..

ولكن كنت أتمنى أن أسمعها تتكلم أكثر .. ولكنها صمتت وعادت الى التريكو .. وقامت زوجتي لتحضر الشاي ..

وقمت الى البيانو وفتحته .. وبدأت أعبث في مفاتيحه .. - أجمل شيء في الدنيا أن يكون الانسان موسيقيا .. أنا كنت طول حياتي أتمنى أن أكون موسيقيا .. كانت هذه أمنيته ..

وأخذت أعبث برهة ثم قلت :
- ألم تكن لك أمنية .. وأنت صغيرة .. ؟

وفوجئت بهذا السؤال :

- أنا ١١ ؟ ..

وترددت لحظة .. ثم قالت في وداعة وهي تبسم :

- كنت أتمنى أن أكون ولدا .. فقد كنت أرى الأولاد حولي يفعلون كل شيء .. وأنا والبنات نستأذن لنفعل أى شيء .. حتى إذا أردنا أن نشرب !

وجاءت زوجتي بالشاي .. وأخذنا نشرب في صمت .. وطلبت من ناني أن تعزف لنا شيئا .. وجلست ناني لتعزف مقطوعتها المفضلة .. وكنت أقف أمامها متكئا على البيانو أنظر الى أهدابها وهي تختلج ..

ولفنى النغم فى موجة من الحزن ..
وسألتها : لماذا تعزف هذه المقطوعة دائما .. وبكل هذا الحزن ؟!
فقلت أنها لا تدري .. ولكنها حينما رفعت وجهها .. كانت عيناها
مكسوتين بغشاء رقيق من الدموع !



كانت الشمس تنام الى جوارى فى شريط دافئ مدد بطول السرير .. وكنت أغض عيني وأحاول الاسترسال فى الأحلام الرقيقة التى أحلمها ، ولكن الضوء الشديد كان يؤلم جفوني ويدفعنى الى أن أفتحها وأفركها .. وكانت زوجتى الى جانبى تنكلم كلاما كثيرا لا أفهمه ، ثم سمعتها تبكى وتقول بصوت متهدج :

— أنا أعلم أنك حزين من أجل وفاة أليك .. ولكن ماجدوى هذا الحزن .. منذ شهور ونحن نعيش بعيدين منفصلين كأننا غرباء .. هل أعاد حزتنا الحياة الى الميت ..

وأفقت تماما على كلماتها .. وتيقظت .. ومسحت على وجهى .. وأنا أفكر فى كلماتها .. كلمة .. كلمة ..

هى تعتقد اذن أن عزوفى عنها سيبه حدادى على والدى .. ولم أعرف .. هل أفرح أم أحزن لهذه الطيبة .. وهل هى طيبة أم غفلة؟! .. لو علمت زوجتى بكل ما حدث فى الأيام الماضية .. أتظل على طبيعتها أم تبصق فى وجهى؟! ..

وتمنيت فى تلك اللحظة أن أقول لها كل شيء .. وأن أكاشفها بالحقيقة ولكنى جيت .. ودخلت الخادمة . وكانت عيناها واسعتين من الرعب ..

— سيدى .. سيدى .. البواب يخطط على شقة عزيز جارنا من الصبح ومفیش حد يفتح .

— لازم خرجوا ..

— مش معقول ياسيدى .. عزيز مسافر والست لايمكن تخرج الساعة دى ..

وقفزت زوجتى من الفراش مرعوبة :

— صحيح .. لا يمكن أن تخرج نانى فى الساعة دى ..

وهرولت الى الباب .. وأنا أجرى خلفها .. والخادمة تعرج وراءنا ..
ووقفنا ثلاثتنا ندق على باب الشقة بأيدينا فى وقت واحد .. ومرت
دقيقتان .. وسمعنا صوتا خافتا يشبه الأنين .. واصفر وجه زوجتى
وابيض حتى أصبح فى لون المنديل الأبيض .. وأخذت تهز الباب فى
عنف ..

وترامى الى آذاننا صوت حركة بطيئة ، ثم وقع خطوات تقترب ..
ثم تحرك المزلاج وانفتح الباب . وكانت نانى واقفة .. أجفانها ثقيلة
وارمة وتحت عينيها غضون زرق .. وهى تنظر إلينا فى دوار النوم .
كأننا خيالات فى أحلامها ..

وكان جسمها الصغير يتطوح ..

وأخذتها زوجتى بين ذراعيها ودخلنا ..

كانت الغرف كلها نظيفة منظمة .. وكل قطعة من الأثاث فى
مكانها . وفى غرفة النوم كانت الأباجورة مضيئة .. وعلى الكومودينو
الى جوار الفراش ، لاحظت أربع زجاجات لأدوية منومة مختلفة ..
وكتاب لبلازاك مفتوح على الصفحات الأخيرة ..

كان من الواضح أنها تأخرت فى النوم وتعاطت دواء منوما لتعالج

الأرق .. فنامت والأباجورة مضيئة .. الى هذه الساعة من الصباح ..
وهذا كل ما حدث .. وأفرخ رعبنا ..

وجلست الى جوارها ألتقط أنفاسي .. وأنا أشعر بالخرج .. لقد
سرقت منها النوم الذي توصلت اليه بالأدوية ..
وذهبت زوجتي لتعد كوبا من الشاي ..

وقمت أنا الى النافذة .. ألوذ بوحدي من احساس ثقيل بالذنب ..

كنت أفكر في الأربع زجاجات من الأدوية المنومة .. وأنا أقود
عربتي بسرعة في عصر ذلك اليوم .. وفي المقعد الخلفي كانت تجلس
زوجتي .. وابنتا وناني .. وكنت أسمع ناني تضحك وهي تداعب
ابني .. وأشاهد صورتها في مرآة العربة ، وشعرها المرتب في بساطة ،
وعينيها العسيتين جدا ..

وجلسنا في كازينو على النيل .. وكان النيل في الفيضان ، والمياه
عالية كبطن الحامل .. وكنت أشعر بالسعادة وأنا أنظر الى المياه
الحمراء وهي تجري وتجري كأنها دم في العروق يتجدد كل
لحظة ..

وكانت الشمس تسيل الى المغيب .. والألوان تتغير بسرعة ،
وتأخذ معها وهج النهار ، وتغطي في بحيرة رمادية ..

وكانت العمارات على الكورنيش تنطمس رويدا رويدا وتذوب
في ذلك المخمل الرمادي ، فلا يبقى منها الا مساحة طويلة بطول
الشاطئ .. مساحة قاتمة بلا معالم ..

و كنت أفيق من الخدر الذى يبعثه اللون الرمادى فى حواسى على
عراخ ابنى وهو يجذب أمينة من ثوبها ويشاور بيده الصغيرة الى
المراجيح فى آخر الكازينو ..

وأخذته أمينة .. وذهبت به الى المراجيح وهو ينط ويقفز ..
وبقيت وحدى مع فانى .. وكنت أنظر فى عينيها وهما يزدادان
اتساعا مع الغروب كعيون القطط .. ويبعثان فى نفسى ، أكثر وأكثر ،
ذلك الاحساس الغامض بالعمق .. وكنت أفكر فى زجاجات الأدوية
المنومة على الكومودينو .. وسألتهما فجأة :

— هل تتعاطين منوما على الدوام ؟

.. أحيانا .. حينما يطول بى الأرق ..

— ولماذا يطول بك الأرق ؟

وسكتت .. ونظرت فى وجهى مترددة ، وقلت مشجعا :

— ليس هناك فى الدنيا شيء يستحق أن نهتم به .. كل شيء
ينتهى .. الماضى يفوت .. والحاضر يفوت .. وأسوأ مستقبل مثل
أحسن مستقبل يفوت هو الآخر .. فقيم القلق والأرق ؟ .. ولماذا
نهتم بأي شيء ؟ ..

— أنت تكلم كرجل عمره مائة سنة .. !

وعادت تنظر فى وجهى برقة وتردف :

— ومع هذا فأنت تهتم .. وتقلق .. من أجل أشياء كثيرة صغيرة
أحيانا .. أليس كذلك ؟؟

— نعم .. أحيانا .. لا أنكر ..

- أترى أنه لا فائدة من الحكمة .. ؟
- ولكنى لا أحب أن تتعذبنى مثلى ..
- أهو اهتمام آخر ؟ .. هل أنصحك أنا أيضا ؟ .. وأقول لك
ان الماضى يفوت ... والحاضر يفوت .. وكل شىء يفوت .. ولاداعى
للاهتمام والقلق بأى شىء أو بأى انسان .. !
وسكنت حينما رأتنى مستسلجا حزينا ..
كنت فى الحقيقة محتاجا الى هذه النصيحة أنا الآخر .. وكنت
أواسى .. نفسى بلا جدوى .. وضحكت ..
ولمت عيناها على نبرة اليأس فى ضحكتى ونظرت الى ..
كانت تبادلنى نفس الاحساس المرير بالحيرة ..
- ماذا نريد بأنفسنا .. ؟!
- نعم ماذا نريد بأنفسنا .. ؟!
وأردفت فى حرارة دون أن تفكر :
- أنا أريد أن أحيا ..
- وحياتك التى تعيشينها .. ؟!
- وحياتى !! .. أى حياة تقصد .. ؟!
وسكنت فى يأس .. ولمت عيناها بغشاء رقيق من الدموع .. ثم
قالت فى صوت خافت :
- ربما أطلعتك على حياتى يوما ما .. اثى أكتبها .. أحيانا أكتب
من فرط اليأس .. ومن فرط الوحدة ..
وتأرجحت على شفيتها ابتسامة واهية ..

وكان يبدو عليها أنها تفكر وأنها مترددة ..
وتلاقت نظراتنا .. وكأن شيئاً ما يشدنا الى بعض ..
ولم تكلم ..
وقطع صراخ ابني صمتنا .. وكان يجرى نحونا وينط ويقفز ..
ومن ورائه أمينة ..
... وجلست أمينة .. وجلس ابني الى جوارها .. وارتفع صوت
الملاعق وقناجين الشاي .. وثرثرة الطفل ..
ولكني ظللت مشدودا الى ناني طول الوقت ..
ولم يتغير الأمر كثيرا حينما عدت الى البيت ..
وحينما استغرقت في أعمال مكتبي لعدة أيام متوالية لم يتغير
الأمر كثيرا ..
ظللت مشدودا طول الوقت بحبال خفية .. بدنيا أخرى غير دنيا
عملي اليومي ومصالح الطعام والشراب وثرثرة كل يوم .. هي
دنياها .. وجودها ..
ظلت ماثلة أمامي حاضرة في ذهني طول الوقت ..
وحينما ألقيت بنفسي في فراشي آخر الليل ، كنت أسأل نفسي
آية رابطة من حديد تربطنا .. وأتذكر علاقتي بفاطمة .. ان الأمر
مختلف تماما .. ؟
ان وجود ناني الى جوارى يفتح لي عالما أليفا أمشي فيه ..
أمشي .. أمشي .. أمشي ..
وأشعر بالأغوار العميقة خلف عينيها ، تكشف لي عن احساسات

أعانيها .. وآلام أعيشها وأعرفها .. وكأني أدخل بيتي .. وأتجول
في غرفتي .. وأجلس تحت ضوء مصباحي الأخضر ..

أشعر برغبة في الافضاء .. وافشاء مكنوني اليها .. وفض
أسراري بين يديها .. ويخيل الى أحيانا أن بعض كلماتها تصدر
عني .. وكأن الحاجز الذي يفصلنا سقط ، وانفتحت فيه ثغرة تتصل
منها وتتخاطب ونمتزج ..

احساس غريب يخيم عليه الأمان .. لا تستعجلني فيه رغبة ..
وانما يتصل في نهر من الحنين دائم الجريان ..

هل كنت أجسم لنفسي هذه المشاعر وأنا نائم بالليل ؟ ..

هل كنت أحلم وأتخيل ؟ ! ..

لا أدري ..

ولكني حينما تيقظت في الصباح كنت أحمل هذه المشاعر معي
الى مكتبي .. وأعود بها الى البيت .. وأنظر بها في صندوق
الخطابات .. وأنقب وأفتح كل الخطابات بلهفة .. وأبحث عن
امضائها . وقد استولى على شعور بأنها لابد مرسله الأوراق التي
تكتبها عن حياتها ، لأعيش معها ..

كنت أريد أن أعيش حياتها معها ..

كان الخواجة متری يتحدث في التليفون بلهجة اتصار .. وحينما
وقفت في النافذة أتنظره .. رأيت ينزل من عربة كاديلاك آخر موديل
ويقتحم المكتب .. ثم يقف .. ويمتشق قوائمه ويتلفت حوله بنظرة

ظافرة ويهتف :

— مارأيك الآن يا أستاذ ؟ .. لقد رفضت أن تشترك معنا في مكتب الاستيراد .. وهذه أول خبطة لنا بعشرين ألف جنيه .
مارأيك .. تعال افتح دفاترك وقل لي ماذا كسبت من زراعة البصل في هذه المدة بصراحة ؟ ..

ولم أنكر أنى لم أتلق ملينا واحدا من البلد ..
ولم أنكر أن المكتب الهندسى الذى أديره فاشل ..
ولكنى أنكرت بشدة أنى نادى .. وأنى شاعر بأن نصف عمرى قد ضاع .. فأنا غير مقتنع بالعمل الذى يعمل به ، وأنا ما زلت غير مقتنع به .. وليست لدى فكرة المساهمة فيه ، والحكاية ليست حكاية فلوس ..

— الحكاية ليست حكاية فلوس .. أشكرك . هل تسمح وتتنازل لى عن فلوسك وأرضك وأطيانك وتستريح من عنائها .. وتعيش سعيدا بثقافتك .. ماهى الحكاية اذن يا صديقى .. ؟

— الحكاية هى أن أعيش كما أشتئى .. أكسب على طريقتى .. وأعمل العمل الذى أقتنع به ..

— وهل أنت مقتنع بزراعة البصل فى الصعيد ؟! ..
ولم أجب ..

— وهل أنت مقتنع بالفلوس التى تخسرهما كل يوم فى المكتب ...!!
ولم أجب ..

وقال الخواجة مترى :

— أنا أكلتك كأخ كبير وصديق حميم للمرحوم والدك .. أنا
لا تعجبني أحوالك . ولو تركت نفسك في هذا الطريق فسوف
تصبح على الحديدية بعد سنوات .. !

وخبطني على كتفى قائلاً :

— اسمع .. مازالت أمامك فرصة للاشتراك معنا . فكّر .. أنا
لا أريد أن أخسر كـثـريـك .. أنا أثق بك وأحبك .. اسمع
كلامى .. الأرض نحس .. اخلص منها .. أنت لم تخلق للزراعة .. !
وخرج مـتـرى ..

وحينما كان يدخل في عربته الكاديلاك الفارهة ، وأنا أنظر إليه
من النافذة .. كانت كلماته مازالت تـقـرـع أذنى ..

هل أنت مقتنع بزراعة البصل في الصعيد ؟ .. هل أنت مقتنع
بالفلوس التى تخسرها كل يوم في المكتب ؟ ..

والحقيقة أنى لم أكن مقتنعا بأى شئ من هذا .. أنا لم أخلق
هذه الأشياء .. لم أخلق للزراعة ولا للتجارة .. والحقيقة انى لم
أكن أعرف لأى شئ خُـلـِـت .. ولم أكن أعرف ماذا أريد بنفسى ..
لم أكن أعرف الا مقدار خمس دقائق من مشوارى الطويل الذى
أسـيـه الحياة ، هى وقوفى الآن في مكتب هندسى فاشل لا أمت
إليه بـصـلة ..

وأغلقت دفتري وأغلقت النافذة .. ثم أغلقت الباب بعدم اكتراث
ونزلت السلم .. وتركت نفسى أضرب في الطريق بين شارع الى
شارع في مشية متراخية الى بيتى ..

وتلقّفتنى الخيالات التى كانت تصباحنى منذ الصباح ..
وتذكرتها وتذكرت عينيها .. وتلهفت على حديثها ..

وحينما وصلت الى البيت .. كان أول شىء نظرت اليه هو
صندوق البريد .. وهناك كانت حزمة من الأوراق تنام فى الصندوق
وعليها اسمى وعنوانى .. وقفز قلبى بين ضلوعى .. وانتزعتها فى
لهفة وصعدت السلم وثبا .. ثم دخلت غرفتى وأغلقت الباب خلفى ..
وفتحت الأوراق ، كانت منها .. وكانت مكتوبة بالقلم الرصاص فى
عجلة وانفعال ..

وألقيت بنفى فى مقعدى .. وبدأت أقرأ ..



أول شخص أعى عليه هو شقيقتى الكبرى والوحيدة .. وأول
حادث أذكره هو حادث بين أختى وزوجها .. كل منهما يشتم الآخر
ويلوح بيديه فى غضب .. ثم أختى مغمى عليها .. وأنا أصرخ بأعلى
صوتى .. وسكان العمارة يهرولون لاسعافها .. وكان عمرى وقتها
لا يزيد على أربع سنوات .. وكان ذلك فى قنا مقر عمل زوج أختى
مأمور الضرائب الذى يكبرها بثمانية عشر عاما ..

وبعد ذلك وعيت على أبى الطبيب الكبير الذى يخشاه كل فرد
فى البيت ويرتجف منه .. وأنا لا أجسر على الوقوف أمام المرأة
لأمشط ضفائرى خوفا منه فأدخل الحمام وأغلق بابه من الداخل
وأسرح شعرى ، وجو البيت الملىء بالمنوعات .. ممنوع الخروج ..
ممنوع الوقوف فى الهلكون .. ممنوع الذهاب لمنزل خالى إلا

بصحبة أحد اخوتي .. ممنوع الذهاب الى السينما .. والسينما
لم تكن ممنوعة فقط ولكنها كانت حراما .. لأن أبى شاهد مرة
فيلما عربيا .. وكان رصاصة في القلب .. فخرج ساخطا من نصف
الفيلم وأخرجنا معه لأن البطلة التى كانت مخطوبة أحبت شخصا
آخر غير خطيبها ، وسمحت لنفسها فى يوم عقد قرانها أن تختلى
بحبيبها فى الشرفة وتبوح له بحبها .. وهنا ثارت ثائرة أبى .. وظل
يلعن السينما والمبادئ التى تنادى بها .. واختتم ثورته بأن حرّمها
علينا ..

ولكنه بالرغم من شدته وصرامته .. كان طيبا حنونا يمرض الى
جوارنا اذا مرضنا .. ويكئ لبكائنا .. ويطعمنا بيده .. ويغتنى
لنا .. على عكس أمى الجافية القاسية وهى تخرج وتدخل على
كيفها .. لا تشغلها إلا شئونها ونزواتها وثيابها وزياراتها وصديقاتها ..
ولا يهمها ان كنا نموت أو نعيش .. !

وأذكر مرة .. بل عدة مرات .. دعواتها بأن يأخذنا الله ..
اثنين .. اثنين .. أى والله .. كانت تصرخ بأعلى صوتها .. لو كان
ربنا يريحنى ويأخذكو .. الهى يجينى خبركو .. وتطلعوا كل اثنين
فى خشبة !!

لن أنسى هذا اليوم .. ونحن ننتظر الى بعضنا فى صمت ونرمقها
فى كراهية ..

وكانت أمى هى الصخرة التى تتحطم عليها صلابة أبى وشدته ..
كان يقضى النهار فى الصراخ والشجار معها .. فإذا احتواهما الفراش

بالليل ذابت ثورته وذاب شجاره وتحول الى حمل وديع تهدده
على صدرها وتأمرة وتلهو به كيف شاءت ..

وكنا نعلم نحن الصغار .. أن أمي تلهو بأبي .. وتمشي على
كيفها ..

كنا في أشهر الاجازة الصيفية نساfer كلنا الى العزبة .. ويبقى
والدى فى القاهرة للعمل فى عيادته .. وفى العزبة كانت أمي تفرح
على كيفها مع عمى العمدة الوارث الجليل الذى لا عمل له سوى
ركوب الخيل واطلاق النار فى الهواء واصططحاب أمي بالليل
والنهار .. وضحكاتها ترن فى الحقول .. وخلف الأبواب المغلقة
بالليل ..

وكنا نرى ونسمع ونسكت .. ولا يخطر على بالنا أن أبى يعلم
من هذا الأمر شيئاً .. حتى فوجئنا بعد سنوات بخناقة تهتز لها
أرجاء البيت ، وأبى يصرخ بأنه سبق أن نبهاها الى سلوكها المشين
فى العزبة فلم ترتدع وتمادت فى علاقتها الآثمة .. وأنه لا يجد أمامه
وسيلة الآن الا الطلاق .. الطلاق فى سكون حتى لا تضار سمعة
العائلة ..

وكان معنى هذا الطلاق أن تظل أمي كما هى فى البيت ..
ويزورنا هو كالمعتاد فى أيام أجازته على ألا تقع عيناه عليها ..
ويكتفى بحرمانها من الميراث والمعاش .. حفظاً لكرامته ..

وكان هذا يعنى فى نظر أمي أشد عقاب يمكن أن ينزل بها ..
وأنه لأهون عندها أن تحرم من بيتها ومنا ومن سمعتها على أن

تحرم من ميراثها .. فلم يكن لها هم سوى جمع المال من أى طريق .. ولو أنها وجدت سوقا لتبيعنا فيها لباعتنا بأبخس الأثمان ..
وبالطبع انتهت حكاية الطلاق كما تنتهى خناقات كل يوم بمجرد الدخول الى غرفة النوم .. وصافى يالبن .. حليب ياقشطة .. واللى كان .. كان ..

وتحول الأسد الى حمل وديع بعد أول قيلة .. واتتهى كل شيء .. وعادت المياه الى مجاريها ..

كان هذا هو حال أبى المسكين مع أمى .. وحاله معنا .. وكنا نعتفر له ضيق صدره وعصبيته لأننا نعلم قلة حيلته .. وأحيانا حينما كان يجمعنا حوله ليحكى لنا القصص .. كنت أرى عينيه تتنديان بالدموع .. وهو ينظر إلينا .. ويضمنا الى صدره .. وكان فى تلك اللحظات يغيّر موضوع الحديث .. ويبدأ فى إعطائنا درسا فى الوطنية .. ويعنى لنا : « يا مصر يا أم الدنيا حبك فى القلب سكن .. »

ونحن نغنى معه .. وهو يدير وجهه الى الخلف ويمسح دموعه .. كم أحببت أبى .. كم أحببته .. !

وبلغت السادسة عشرة فى فبراير وبدأ أبى يلوح بوجوب امتناعى عن الذهاب الى المدرسة وبقائى فى البيت .. ولم تمنع والدتى على شرط أن يوافق أبى على زواجى ..

وتقدم لى فى هذه السنة ضابط شاب يكبرنى بعشر سنوات .. يتيم الأب والأم له إيراد خارجى غير وظيفته ، مستقيم لا يشرب

الخسر ولا يلعب القمار ، وسُئمته في عمله نظيفة .. فقبله أبى وجاء
لرؤيتي .. ورأيتُه شخصا عاديا ليس فيه شيء يلفت النظر .. أما هو
فقد أعجب بى جدا

وامتدح جمال وجهى وعينى وشعرى الأسود الطويل وفسى
الصغير وأسنانى المرصوفة .. ويوم ألبسنى الدبلة لم يفته أن
يبدى إعجابه بأناملى وبطريقة عنايتى بأظافرى ..
وكنت سعيدة بأطرائه لجمالى .. فهذه أول مرة أسمع فيها أنى
جميلة جذابة ..

وداعبتنى الآمال ..

فى المستقبل سوف أستطيع الذهاب الى السينما .. وسوف
أستطيع الضحك والغناء بصوت عال على كفى .. وتسريح شعرى
فى المراة ووضع الأحمر على شفتى .. والخروج الى الشارع ..
والذهاب الى المصيف ونزول البحر .. والسفر .. والسهر .. وألف
متعة .. ومتعة ..

وجلس خطيبى يتحدث مع أخى .. وفهمت من حديثه أنه ينتظر
الترفية .. وأنه ينتظر أن يعاونه والدى كطبيب كبير متصل
بالسراى .. وأنه يعلق زواجه على هذا الشرط ..

وسقط فى نظرى .. وسقطت أنا أيضا فى نظر نفسى ! ..

إن الجميلة الفاتنة كانت الترقية .. ولم تكن عيونى !

وكأى رجل عادى يبحث عن صفقة .. كان خطيبى أيضا يبحث
عن صفقة .. ويريد التقرب من السلطان عن طريق الزواج بى ..

لم يكن يريد التقرب منى ..

وغيضت كطفلة جرحت في أحلامها ولويت بوزى .. وكرهته ..
وكرهت الزواج .. !

وحدث في ذلك الأسبوع أن جاءت أختى من البلد غضبانة من زوجها وأصرت على عدم العودة .. فهي لم تعد تستطيع الاحتمال أكثر من هذا ... مع زوج لاتحبه . ولا تطيقه .. زوج حاد المزاج ضيق الصدر في سن أيها ..

وقامت القيامة في البيت .. بكاء وصراخ وتشنجات من أختى .. وصراخ أشد وتهديدات من والدى .. واجتماعات مع خالى تشقذ وتنفذ .

وبعد خمسة عشر يوما وافقوا على الطلاق ، على أنه درس فقط يعطونه لزوجها لكى يتأدب .. وفعلا طلقت واشترط زوجها أن يأخذ الأولاد وأن يستكتبها اعترافا بخطها بالتنازل عن المؤخر والنفقة وبأنها ليست حاملا ، وكتبت له ما أراد وألقته في وجهه .. !

وانتهت المشكلة ، ولكنها ماكادت تنتهى حتى انفجرت قبلة غيرت نظرتنا للأمر كله .. فقد تقدم لأختى بعد طلاقها مباشرة مقاول صديق لزوجها ومن نفس البلد .. شاب جميل من سنها .. كان يتردد على البيت بحكم صداقته بزوجها ..

وكانت فضيحة .. لم يسع والدى أمامها الا أن يوافق على الزواج ليعطى على الخبر ماجور .. !

وثار خطيبى وبدأ يلوح بكلام جارح .. وثرث في وجهه وطلابته

بفسخ الخطبة ولكنه رفض .. لا لأنه يحبني .. ولكن لأن نتيجة
الترقيات لم تكن قد ظهرت بعد .. !

والحمت على فسخ الخطوبة ففسخها ، وشعرت براحة عسيقة
ليست بعدها راحة ..

وأذكر في تلك الليلة .. وأختي نائمة بجوارى .. أنها سألتني في
حزن وهي تلخل في حضني عن رأيي في زواجها وطلاقها وكلام
الناس .. فأجبت وأنا أكذب : أنت معذورة .. لقد تعذبت بما فيه
الكفاية مع رجل لاتحبيته .. ولولا أن الله يعلم بأنك مظلومة ..
لما أرسل لك هذا الرجل لانتقذك .. والزواج منك ! ..

فتنهت أختي وقالت :

- آه .. كم تعذبت .. ما أرحم الله .. لقد عوضني خيرا بعد
كل هذه السنين التي صبرتها .. فاني أعبد زوجي وأشعر من فرط
سعادتي أنني أحلم .. وأنى سأفوق على الحقيقة المرة .. أشعر أن
طلبي لن يحتل هذه السعادة ..

أبعد هذا الكلام كنت أستطيع أن أبوح لها بما أنا فيه .. ولكنني
كنت في الحقيقة أتألم .. وكنت خجلى .. وكأني أنا التي أحصل
فضيحتها ..

وكنت أريد أن أيكى .. وأتكلم .. وأشكو أحزاني .. ولكن
لمن أشكو أحزاني .. لأمي !! .. وهي عدوتي .. وعارها هي الأخرى
على رأسي .. لأبي المسكين ولديه من عذابه مايكفيه ويكفي
العالم .. !

لم يكن هناك مفر ..

كان لابد أن أتعذب وحدي .. وأحمل آثام هذه العائلة وحدي ..
وكانت النتيجة أنى مرضت .. وضعفت .. ونقص وزنى فى شهر
الى أربعين كيلوجراما .. وأصبحت عيناى من فرط هزال وجهى
واسعتين جدا .. ومخيفتين ..

وكان والدى متغيبا فى تلك الفترة فى مهمة طبية بالمنيا .. وأمى
سارحة على كيفها تنط كل يوم الى العزبة ثم تعود سكرانة تغنى فى
غرفات البيت بصوت أجش مبتذل ..

وأنا نائمة فى فراشى .. حرارتى مرتفعة .. ورأسى تكاد تنفجر من
الحمى .. وقلبى يطحنه احساس ذليل يأس ..

وبلغنى خطاب من أبى فى ذلك الوقت يصف لى مدى ذعره من
حلم رآه .. وهو أنى مريضة طريحة الفراش وحولى أربعة أطباء
يفحصوننى .. ثم يرفعون رؤوسهم الى أبى ويقولون فى نفس
واحد : مفيش فايدة .. فيصرخ أبى مذعورا .. ويصحو من النوم
ليجد نفسه جالسا فى فراشه والدموع فى عينيه .. !

ولم يصدق أنه كان يحلم .. فقام لفوره ليكتب لى يسألنى
عن صحتى ويستحلفنى أن أرد فوراً وبخط يدي ..

وفعلا كتبت له فى الحال .. وكتب متأثرة جدا ، فظلت أبكى
طول النهار وطول الليل ولم يغمض لى جفن وأنا بين احساس
عنيف بالحزن واحساس عنيف بالسعادة .. بالسعادة لأن أبى يحس
بى ويشعر بى الى هذه الدرجة ..

وفي الصباح فتحت عيني على صوت أبي وقد جاء في أول
قطار .. وسمعت لهثاته وهو يصعد الدرج وينادي بصوت عال
وبلهفة : ناني .. ناني ..

وجريت وفتحت الباب .. فتلقفني في حضنه وظل يقبلني ويكي ..
وأنا أبكي .. وأضع رأسي الصغير على صدره .. فيهددني كفرخ
الحمام .

يا أبي .. يا حبيبي .. يا ملاكي .. يا الهى الرحيم ..

عرفت في تلك اللحظة لماذا لا يطلق أبى أمى على ما يعلمه من
أثنا .. لماذا تشل يده كلما رفعها ليهدم بيته .. لماذا يضعف ويفقد
المقدرة ويصبح كالطفل السليب الارادة .. لأنه يحب أولاده وبيته ..
لأنه يحبني ..

وغفرت له ضعفه .. بل لقد أحبت ضعفه .. وعشقت ضعفه ..
ألس أنا ضعيفة ؟!! أنا ..

وبدأت الأقدار تنسج لنا أجزاء جديدة ..

أنجبت أختى من زوجها الجديد بتا .. وبعد سنة حملت مرة
أخرى ثم أجهضت .. وبعد الاجهاض بشهور ظهرت عليها علامات
سرطان بالثدى رغم أنها كانت في أوج شبابها ولم تتعد الثلاثين ..
وأجريت لها عملية استئصال للثدى .. وقال الأطباء أن العملية
لن تنفع .. وأنها جاءت متأخرة ، وأن السرطان سيعاودها في خلال
سنة ..

ومضت شهور من الانتظار المفرع .. انتظار الموت ..

وأنا كل يوم أنظر الى وجهها وهى تضحك فيخيل لى انها جثة
تضحك .. وأدخل فى غرفتى وأبكى بحرقة .. فلم يكن فى امكاننا
أن نقول لها الحقيقة .. !

لكم تمنيت أن يصينى الله بدائها ويأخذنى لأستريح ، فلم يكن
لدى شىء أتعلق به .. أما هى فكان لها حب تعيش من أجله ..
ورجل تبعده .. وابنة جميلة تعشقها ..
كانت الدنيا بين يديها .. وكنت وحدى .. ولكن الموت لا يختار
ضحاياه ..

واقتربت نهايتها .. وكانت آلام العظام تفرى جسدها .. وكانت
تصرخ وتتشبث بيدي هاتفة فى زعر : « لا أريد أن أموت ..
لا أريد أن أموت .. انى أفضل أن تطحننى الآلام ولا أموت ..
لا أريد أن أترك زوجى .. حبيبى .. سعادتى .. لا أطيق أن تأخذه
امرأة أخرى منى »

وتمسك بزوجها وتصرخ : « احلف لى أنك لن تتزوج بعدى ..
احلف أنك ستعيش تذكرنى .. لا أطيق أن تلمس امرأة أخرى يدك
الحنوتان .. لا أطيق أن تلمس شفتيك شفتان غير شفتى .. ان
هذا يقتلنى ألف مرة أكثر من الموت .. ! »

وزوجها يبكى ويقبل يديها وقدميها ويؤكد لها أنه لن يتزوج ..
أبدا .. أبدا .. مدى الحياة .. ثم يخرج الى الصلاة وينهار باكيا ..
ويقول :

— لم أعد أطيق عذابها .. ان آلامها تقتلنى .. أتمنى أن تموت

لتستريح .. ولكن كيف تموت ؟ .. ان موتها يعنى حياتى أنا
أيضا .. يارب . وكانت فى أيامها الأخيرة تهذى باستمرار .. وكانت
فى حاجة الى سهر وتمريض مستمر ..

وطلب زوجها منى ومن أمى أن نبقى معها فى البيت .. لتبادل
السهر عليها .. ولكن أمى اعتذرت بكل بلادة بحجة أنها لاتستطيع
أن تترك البيت والأولاد .. ولأنها ليست فى السن التى تسمح لها
بالسهر الى جوار مريضة .. !

ومن هى هذه المريضة .. انها ابتها !! ..
وكان معنى هذا أن أسهر الى جوارها وحدى ..
وأن أسمع كلماتها .. كلمة .. كلمة .. وآهاتها آهة ..
آهة .. وأن ألقى لهثاتها وشهقاتها على صدرى .. وأن أموت الى
جوارها بالحياة ..

وتلطف الله بها فقبض روحها الى جواره .. وأصبت أنا بانهار
عصبى .. فأخذنى خالى الى الاسكندرية ..
وسافرت وأنا كالذاهلة ..

وبذل خالى وزوجته والعائلة كل ما يستطيعون من جهد ليخرجونى
من حزننى وصمتى وانطوائى .. دون جدوى .. ولم يكن أحد منهم
يعلم مدى ما أعانيه .. كنت كلما أغمضت عيني رأيت أختى ميتة
وزوجها يحتفظ بجثتها فى المنزل ويأبى أن يدفنها لأنها لاتستطيع
فراقه ، وتتشبث به وهى ميتة !

ومرت سنة وذهبنا لرأس البر لنصطاف ..
وجاء زوج أختى فى زيارة لمدة ثلاثة أيام ..

ولاحظت خلالها أنه بدأ يغيّر نظره لى ، فبعد أن كان يعاملنى
كشقيقة صغرى بدأ ينظر الى كامرأة ..
ولم أفهم مايقصده ..

وحينما عدنا الى القاهرة وعلمت العائلة بزيارته .. أخذوا
يباركون لى .. على ايه ؟! وسمعت صديقات أمى يباركن لها فى
التليفون .. على .. ايه .. ؟

وأمى تقول لى انه شيء طبيعى .. وانه أحسن زوج لى .. أنا .. ؟!!
أتزوج زوج أختى التى عاشت طول عمرها تعبده ، واستحلفته
بحياتها وعذابها ألا يعطى نفسه لامرأة أخرى بعدها .. مستحيل ..
مستحيل ..

انى أموت بلا زواج ولا أتزوجه .. مستحيل .. !
 واجتمعت العائلة حولى .. ليقولوا كلهم فى نفس واحد :
— مستحيل ليه .. ؟! أنت أحق به من الغريبة .. واللى نعرفه
أحسن من اللى مانعرفوش وحافظتى البنت لمن .. البنت الحلوة
الصغيرة .. بنت أختك اللى حترمط فى ايد اللى تسوى واللى-
ماتسواش ..

— وهو ماله .. أخلاقه ممتازة .. وفلوسه بالآلاف ..
وانسانيته .. وعقله .. وحنانه .. وادى اتنى شفتى ازاي كان
يعامل أختك ..

وصرخت : مستحيل .. مستحيل .. اتمم مجانين .. ؟!

ولكنهم أحاطوا بى فى حلقة .. وأخذوا يضيقون الخناق حول
عنقى وسلاحهم العقل .. والمنطق .. وكلامهم معقول وأسوأ مافيه
أنه معقول .. !

انه شخص ممتاز فعلا . وأنا أولى برعاية بنت أختى من الغريبة ..
ولكنى لا أشعر نحوه بشيء ..

أومن أدراكم أنه لم يكن يعامل أختى هذه المعاملة الا لأنه
يحبها .. وكيف أسلب أختى راحتها وهى فى قبرها وأخذ زوجها ..!
— مستحيل .. مستحيل ..

— مستحيل ليه .. انها حينما تحس فى قبرها أن بنتها .. وديعتها
الغالية ذهبت الى يد أمينة .. وأن أختها هى التى سوف ترعاها فانها
سوف تفرح ..

— أنت مغللة ..

— مغللة .. ربما ..

ان أسوأ مافى كلامهم أنه معقول ..
يارب ساعدنى ..

أبى .. أبى حبيبى ..

أبى يقول لى بسذاجة : تزوجيه .. انك أولى به من الغريب ..
انه انسان طيب .. وبنته سوف تكون بنتك ..

أخى يقول لى : تريشى حتى تعرفى شعورك .. انها ستكون آخر
فرصة لك ..

أمى سافرت الى الاسكندرية لتعود ومعها البنت .. بنت أختى ..

آه من البنت .. 1

انها حينما رأتني : أَلقت بنفسها على صدرى واحتضنتنى فى حب
وغمرتنى بالقبلات فى كل مكان من وجهى وعنقى .. وطلبت أن
تنام معى ..

وحينما أخذتها فى حضنى لم يغمض لى جفن طول الليل .. كان
كلامها يفتت كبدى .. ويقلب تفكيرى رأسا على عقب . وجاء
هو .. بعد أسبوع ، وفأثحنى فى موضوع زواجى بى .. وصارحته
بكل ما يدور فى رأسى .. قلت له انى لست كشقيقتى .. بل أنا على
عكسها فى كل شئ .. فى الطباع والأخلاق والصورة ، وانى لن
أستطيع ملء الفراغ الذى تركته . وشئ آخر أهم من كل هذا ..
انى لا أحبك كما كانت تحبك هى : صحيح أحترمك وأعزك لأنك
شخص مثالى وأحبك كأخ .. ولكنى لا أشعر نحوك بشعور الزوجة
لزوجها ..

فقال لى :

— انى أكتفى الآن بهذا الحب .. وسوف أترك للزمن أن يجعلك
تحييننى كما تحب الزوجة زوجها . أما عن طباعك وأخلاقك ..
فأعتقد أنى أفهمك أكثر من أى شخص آخر .. وسأعرف كيف
أعاملك .. وأعوضك كل مافاتك .. أما عن الصورة فصحيح أنت
تختلفين عنها كثيرا .. وليس معنى هذا أنك وحشة .. ولكن لك
جمالك الخاص بك .. أما عن الفراغ الذى تركته أختك فأنا لم
أتقدم الا بعد ثقتى بنفسى وفى شعورى ..

قلت له :

— أنا متأكدة أنك لم تطلب الزواج منى الا من أجل بنتك ..
والخالة مهما كانت فهي أرحم من امرأة غريبة ..

فقال فى نبرة تأكيد :

— أنت مخطئة فى تقديرك .. فأنا أولا وقبل كل شىء أطلبك لأنى -
معجب بك .. وأنت تعلمين أنى أعيش مع أختى الأرملة .. وأنها
تخدمنى وتخدم بنتى .. ولا يدفعنى الى الزواج بك حاجتى أو
حاجة بنتى الى الرعاية وانما يدفعنى حبنى لك ..

وهنا دخلت علينا البنت وقالت فى نبراتها الحلوة :

— مالكم قاعدين تتوشوشو زى المتجوزين كده .. بتقولوا
ايه .. بابا ؟ .. بتحب طنط زى ما بحبها .. أنا بحبها قوى ما اعرفش
ليه ..

— وأنا كمان بحبها يا حبيبتى ..

— خلاص مادام بابا يحبك وأنا معنديش ماما .. ليه متكونيش
ماما .. اتنى معنديش ولاد .. وأنا معنديش ماما .. يبقى أنا بتتك
واتنى مامتى .. !

فأغرورقت عيناي بالدموع .. وتلققتها فى حضنى .. وقال هو

فى صوت حزين :

— ألا يكفيك اسعاد ثلاثة أشخاص أحياء وأعزهم المتوفاة لكى

تشعري بسعادة كبيرة ..

فأعلنته موافقتى دون وعى منى .. فقط اشترطت عليه تغيير
السكن ، اذ لايمكننى العيش فى نفس الشقة التى عاشت أختى
وماتت فيها .. وهكذا تزوجت الأستاذ عزيز .. زوجى .. وبدأت
مأساتى الكبرى ..



قلت لعزیز انی لا أستطیع اللخول فی شقة أختی المرحومة وعلى
عفشها .. فوعدنی انه سوف ینتقل الى شقة أخرى .. وسوف
یشترى لی عفشاً جدیداً .. ویعطی العفش القديم لأمی .. وطلب
منی الاسراع فی اعداد ملابسی الجديدة .. وبدأنا تتشاور فی الاثاث
الذی سنجدده ..

وبعد عقد القران خرجنا تمشی باللیل .. وعند عودتنا فوجئت
به یشدنی الى غرفة النوم ویغلقها بالمفتاح .. ویطلب منی حقه
الشرعی ..

وفوجئت بهذا التصرف من جانبه .. وخصوصاً بعد أن شرحت
له حالتي وحاجتي لتغیر الشقة والجو القديم لتستريح أعصابی ..
ولم أكن قد تهيأت بعد لهذه الرغبة ..
كنت مازلت أنظر الیه كأخ أحترمه وأعزه ..
وكانت مفاجأة ارتبكت لها تماماً ..

وتم اتصالنا فی نفس غرفة النوم التي كانت تنام فیها المیتة ..
وعلى فراشها ..
ولم أشعر بلذة ..

لاشئ سوى احساس بالاشمئزاز منه وهو یخلع ثيابه ..
واشمئزاز من نفسی .. وأنا أنام وأمتثل لكل ما یطلبه .. وفضول
ودهشة .. واحساس بالبلل .. وبالقرف .. ثم احساس مریر بالذنب

في حق أختي وأنا أسلبها أعز ممتلكاتها .. وأطلب المتعة في فراشها
الذي ماتت فيه ..

ونام هو ..

وظللت أنا صاحبة أثقل على فراش الشوك ، وأحلق في الظلام
وشبح الميتة أمامي .. وضوتها يجلبجلب في أذني .. وهي متشبثة
بذراع زوجها تصرخ :

— احلف لي أنك لن تتزوج بعدى يا عزيز .. احلف أنك ستعيش
تذكرني .. لن أطيق أن تلمس امرأة أخرى يديك الحنوتين .. ولا
أن تلمس شفتيك شفتان غير شفتي .. ان هذا يقتلني ألف مرة أكثر
من الموت ..

وأنا أصرخ وأبكي الى جوارها وأولول .. يا حبيبتى يا أختي ..
سوف تعيشين لزوجك ولبنتك .. لن تموتى أبدا سوف أموت
أنا .. !

واتبه لأجدني في الفراش .. أنا بلحمي ودمي والى جوارى
زوجي عزيز نفسه .. وجسدي مازال يبلله العار من آثاره .

ويصحو زوجي ليذهب الى الشغل ، ثم يعود قائلاً انه تعب من
البحث عن شقة أخرى بايجار قديم وبخلو رجل .. ويقترح على
تغيير نظام الشقة وفتح الحائط بين حجرة النوم وحجرة الأولاد
لتغيير المنظر وتحويل الغرفتين الى غرفة جميلة واسعة .. الى أن
يبنى فيلا ..

— وهل ستبنى فيلا ؟ ..

فيقول : نعم .. لقد اشتريت الأرض فعلا .. وبدأت أتفق على
رسمها وبنائها .. ولكن بالطبع لن أستطيع دفع أقساطها اذا اتقلت
الى شقة بايجار جديد لأنى لن أستطيع الدفع فى الشقة الجديدة
والفيلا فى وقت واحد ..

٣ - وهل ستنتهى من بناء الفيلا قريبا .. ؟

٤ - فى ظرف أشهر قليلة يا حبيبتى .. ان الحكاية لن تحتاج أكثر
من أشهر قليلة نصبر فيها على عيشتنا هنا حتى ينتهى البناء ..
وهكذا صبرنا ..

وبقينا فى تلك الغرفة الملعونة .. لم يتجدد شىء سوى عذابي
الذى بدأ يزداد يوما بعد يوم ليصبح عذابا رهيبا ..
يصبح الصبح فأقوم لأساعد البنت على الذهاب الى المدرسة ..
وأعد لزوجى فطوره ..

ويذهب الى عمله وأبدأ أنا فى الاشراف على البيت .. ويتمكنى
الشعور بأنى لست فى بيتى .. وانما أنا زائرة غريبة .. لصة .. كل
حجرة تذكرنى بأختى .. كل مقعد .. كل قطعة أثاث ..
.. انه لم يتزوجنى أنا .. انه تزوجنى من رائحة أختى التى يحبها ..
تزوجنى ليتعلم بى حتى يبقى فى نفس البيت .. وفى نفس الغرفة ..
ونفس الفراش الذى يحبه ..

ما أنا إلا شبح .. أما الحقيقة التى تملؤه وتملا قلبه وتملا البيت
وتملأنى أنا أيضا فهى جسم الميتة وأتفاسها .. !

أنا لصة سرقت زوجها منها .. بل هى اللصة التى سرقت نفسى

منى .. سرقت حقيقتى .. ووضعت فى مكانها صورتها ورائحتها ..
وفى كل يوم أبتعد عنه أكثر .. وأبتعد عن نفسى أكثر ..
ويتسع الجرح فى داخلى .. وينفصل سلوكى الظاهرى الذى أتكلفه
بحكم الواجب .. عن شعورى الداخلى الذى يضطرم داخلى
بالنفور .. !

وهو لا يشعر بالعذاب الذى أعانيه .. وإنما يشور لبرودى .. ثم
يكف عن الاهتمام بى وبرغباتى .. يأخذ فى معاملتى كشىء اشتراه
بالمال .. يأخذ منه حقه الشرعى متى يشاء بالطريقة التى تعجبه ..
لا يعبأ بأشمتزازى !

ويتحول فى نظرى الى حيوان .. !
وأبحث فيه عن الرجل الممتاز .. والانسان اللطيف الذى تعودت
أن أحترمه فلا أجده .. !

ان المعاملة السرية والعطف الرقيق المتبادل فى لحظة الفراش ..
وحرص كل واحد على شعور الآخر .. وتجاوب النفوس والأرواح ..
هو وحده الذى يخلق الاحترام الحقيقى والحب بين زوجين .. أما
المظهر اللطيف فى الشارع وفى التزام وعلى البلاج فانه لا يكفى
ليجعل من الرجل زوجا ..

ان الرجال يتغيرون كثيرا حينما يخلعون ملابسهم الرسمية .. !
ونحن نكذب على أنفسنا حينما نقول اننا سوف نحب أزواجنا
بمرور الوقت .. !

لقد فهمت هذا بعد فوات الأوان ..

لم يكن زوجي ذلك الرجل النبيل الجنتلمان الذي تعودت أن
أحترمه .. وحينما خلع ملابسه .. كان مجرد حيوان !

ولم يحدث شيء بمرور الوقت ... لا حب .. ولا حتى تعود ..
وانما ازدادت كراهيتي .. وازداد نفوري !

وكنت أشعر بالضيق كلما اقترب مني ليأخذ مايسميه حقه
الشرعي ، وكنت أحيانا أضغط على نفسي لأرضيه .. وأحيانا أعلنه
بأنى غير رغبة ~~هو~~ كان حينئذ يثور .. ويقول انه بشر وبدنه له عليه
حاجات .. فمن أين يقضى هذه الحاجات .. فأثور أيضا وأصرخ
بأنى بشر .. وبدنى له على حق أنا الأخرى .. ولا أستطيع أن أرغمه
على طعام لايجبه !

وكان يحدث دائما اذا ضغطت على نفسي وامثلت لمطلبه .. ان
أثور بعد هذا لأتفه الأسباب .. وأبكى .. وأصرخ !
واذا حدث العكس وضغط هو على نفسه .. وامتنع من أجلى ..
فانه كان يثور وينفجر بعدها لأتفه سبب !

وكنت حينئذ وحينما تبلغ ثورته أشدها .. أشعر براحة شريفة
فى داخلى .. لعلها أختى الميتة. هى التى كانت تبتهج فى داخلى
بعذابه .. ولكنى كنت أشعر شعورا آخر واعيا بالعطف عليه ..
والحزن من أجله ..

وهكذا كنت أتراوح بين احساسات متناقضة ..

وبدأ يلجأ الى أدوية طبية لطيل فى فترة اتصاله بى .. وكنت
فى تلك الحالات أشعر بلذة .. ولكن اللذة كان يعقبها قىء وصداع

وآلام نفسية حادة .. وشعور بالنفور والاشمئزاز من جسمي لأنه
يتلذذ وحده كالحيوان دون أن تتلذذ روحي وتنعم نفسي .. ودون
أن أشعر برضى القلب ..

وكنت أحتقر جسمي وأعاقبه وأثأر منه .. وأنظر اليه باشمئزاز ،
.. كأنه جسد عاهرة باعته في سبيل قوتها ومصرف يدها ..

كانت اللذة تنتهي دائما بنكد لى ولزوجي ..

.. وأدرك زوجي أنه لا فائدة .. فأسلم نفسه ليأس مرير ..

وبدأ يعاملنى كأنى وسيلة يؤدي بها وظائفه بدون شعور ..
بدون تمهيد .. بدون مقدمات ..

وتحولت ساعات الليل الى ساعات عذاب أليم ..

وفي بعض الأحيان كنت أشعر بانقباض في صدري بمجرد سماع
أذان العصر .. ودخول الليل .. من خوفى .. ومن احتمال طلبه
شيئا .. وفي أحيان أخرى كنت أنهار وأبكي .. وألطم خدى ..
وأشد شعري .

وكرت رؤيتى لأختى في الأحلام ..

وكنت أراها في مرة تغسل ثياب زوجي .. ومرة تخطط له جواربه
أو تطعم ابنتها وتعد لها الشاي واللين .. وتلبسها مريلة المدرسة ..
كانت تروح وتجيء حولى .. وفي عقلى .. وفي خيالى .. وتعيش
حياتها البيئية العادية .. التى هى حياتى .. وأنا أنظر اليها .. والى
نفسى كأنى غريبة تماما ..

وبدأت أغرق آلامى في القراءة .. كنت أقرأ لزفايج ، وأطالع

مارسيل بروس .. وبعض كتب بلزالك قرأتها مرتين وثلاثة ..
وأحيانا كنت أقرأ الجرائد القديمة .. وأحيانا كنت أكتب ..

وأحيانا كنت أتلهى بالعزف على البيانو .. وكنت أحب المقطوعات
الحزينة اليائسة مثلى ..

ولكنى كنت أحس فى لحظات أن كل هذا كلام فارغ .. وكنت
أمزق الأوراق التى كتبها .. وأمزق الكتب .. وأمزق شعرى ..
وأبكى فى حرقه وصمت .. !

كل هذا كلام فارغ .. !

ان أنوثة المرأة هى كل وجودها .. وحينما تفقد المرأة جسمها
وروحها فلاشئ يعوضها .. لا شئ .. لا شئ أبدا .. !

وفى تلك الأحيان كنت آخذ الأقراص المنومة .. لأنام .. وأقتل
سوس القلق واليأس الذى يأكلنى ..

كنت أنشد الخلاص من نفسى بأى ثمن .. !

وأخيرا وصلت غرفة النوم الجديدة .. وجاءت معها أُمى ..
وغيّرت نظام البيت .. وبعد يومين تشاجرنا ، وسافرت غضبانة
لأنها تريد أخذ بعض مفارش أختى بحجة أنها أصبحت زائدة عن
حاجتى .. ورفضت بشدة .. وقد أحسست مدى الفارق بيننا ..
هى كل تفكيرها محصور فى أخذ مفرشين أو ثلاثة .. وأنا أعيش
أبكى وأصرخ وأحرم على نفسى حياة وسعادة هى ملكى وحقى
لمجرد أن أختى اشتتها يوما ما .. !

وأدركتنى رحمة الله وظهرت على بواذر الحمل .. واسترحت

من اتصالى بزوجى بضعة أشهر أنجبت بعدها طفلا جميلا ..
شعرت بالفرحة لأول مرة .. حينما نظرت فى وجهه ..

وسافرنا الى بورسعيد .. وفتح زوجى مكتباً للمقاولات ..
وكانت حياتنا تبدو من الظاهر رتيبة هادئة ، وكأنما التأمت
جراحها .. ولكنه التئام من السطح فقط .. لأنها كانت تزداد عمقا
يوما بعد يوم .. !

ومرت شهور .. وانتقلنا الى شقة جديدة .. ولاحظت أن حال
زوجى ساءت .. وأن أعصابه أصبحت لاتتحمل أى شىء .. وأنه
أصبح يثور فى وجهى بلا سبب ويظل يصرخ ويشتم ثم يحملق فى
وجهى .. وتلمع عيناه ببريق مخيف فيه مزيج من الكراهية واليأس
والجنون .. وكان يخيل لى ساعتها أنه سيقع فاقد النطق ..
وكان السبب هو سوء حالته المالية .. وتوقف أعمال المكتب
بسبب الحالة الاقتصادية ..

وكنت أحاول بشتى السبل أن أطيب خاطره بدون نتيجة .. اذا
هتوت عليه المشكلة اتهمنى بأنى لا أقدر الموقف .. وأنى أنانية
لايهمنى الا نفسى .. واذا حاولت التفكير معه .. نهرنى وقال : انى
طفلة فى تفكيرى .. وانى لا أفهم شيئا ..

وجاءت الست الوالدة .. لا لتزورنى ولكن لتقبض حوالى
الخمسمائة جنيه تعويضا عن ثلاثة كباين غمرتها المياه بسبب اهمال
البلدية .. والحقيقة أن هذه الكباين كانت قد اشترتها من نقود
والدى دون أن يعلم ..

وقلت لها انى معذورة .. وفي حاجة لقرشين .. وأن حالة البيت
تعبانة .. وان زوجي عصبى باستمرار بسبب توقف الاعمال في
مكتبه ..

فوضعت يدها في محفظتها .. وأعطتني ثلاثة جنيهات .. ولم أعرف
ماذا أقول .. وبماذا أشتها .. وألقيت في وجهها النقود ..

وقعدت أصرخ وأبكي .. وزوجي يصرخ في وجهي .. دى مش
عيشة .. ايه القرف ده .. أنا ذنبى ايه أستحمل النكد المستمر ده ..
انتى اتخانقتى مع أمك .. تقوم هى تسافر مبسوطه .. وأنا اللي
أشرب المر هنا ..

وأبكي فيزداد صراخه ..

وبدأت أفكر جديا في وضع حد لهذا العذاب ..

كان الطلاق غير مجد .. فقد فات الأوان وتحولت الى عجوز
صفراء كالحة في سن الثلاثين .. امرأة ذاهلة تائهة لاتصلح لشيء ..
ولم تكن لى حياة أخرى أحيها .. أو يئت آخر ألجأ اليه ..
أمى تكرهنى وأنا أكرهها .. وسوف تطردنى من بيتها اذا لجأت
اليها .

واذا طلقنى زوجى فلن يكون أمامى حل سوى الانتحار ..
كانت حياتى كلها يأس فى يأس .. المخرج الوحيد فيها هو
الخضوع والقبول والاستسلام ..

وبدأت أقتل فى نفسى كل احساس .. وأعيش جسدا بلا روح ..
أتحرك فى فراغ مفرع .. وملل قاتل .. وأنام فألبث فى فراشى بلا

حركة لا أنا بالنائمة أو بالصاحبة .. وانما راقدة في خمول شنيع ..
أقوم من رقادي لأرقد من جديد ..

وبدا يشتمنى فلا أرد .. ويسبنى بألفاظ بذية فلا أجابه ..
ويثور في وجهي ولا أتكلم ..
واذا به يصرخ فجأة :

— اتنى ساكة كده ليه .. عاوزه تفرسينى .. حد مصلطك
عليه .. عاوزانى أتجنن .. عاوزانى أطلقك وأخلص .. طيب انت
طالق ..

ووقف يطلب والدى فى التليفون ويبلغه أنى طالق ..
ونام ليلتها فى حجرة أخرى .. وبث أنا أفكر فى مصيرى ..
لأشء أصبح يجدى .. خضوعى أصبح كثيرة .. وهياجى يثيرة ..
وها أنا مطلقة .. بلا أمل .. بلا بيت .. بلا صدر حنون ألجأ
اليه ..

وأندفت الى موسى حلاقة وجدته أمامى .. وقطعت شربان ذراعى
وأغمى على .. وكان آخر ما سمعته صوت الخادمة وهى تصرخ :
دم .. دم .. دم ..

وحينما أفقت كان زوجى راكعا الى جوارى يقبل يدى ..
وقدمى . ويكى ويتوسل .. ويقول انه سيفعل المستحيل لاسعادى ..
وانه لن يتركنى أبدا مهما حدث ..

وأنقذونى من الموت لموت بطريقة أخرى .. يبطء .. فى البيت

الواسع .. والحجرات التي لا أعرفها .. والرجل الغريب الذي
يضمني كل ليلة على أنه زوجي ..

والملل .. والفراغ .. والحياة التي بلا معنى ..

وكل يوم مثل الآخر ..

وأنا أقرأ .. وأكتب .. ثم أشعر أنه لا فائدة من أى شيء ..
فأخذ الحبوب المنومة لأنام ..

ولا أحد يشعر بى ..

آه يارب ..

ماذا فعلت لأتعذب .. ؟!

وما هو الأمل الذى أتحمّل من أجله كل هذا العذاب .. ؟!

ان الناس يضحون بأنفسهم من أجل شيء .. وأنا .. من أجل
أى شيء أضحى ؟!

انى أخسر كل شيء .. حتى نفسى .. وليس لى الا نفس واحدة
أعيشها ..

وانتهت المذكرات ..

وعدت أمسك حزمة الأوراق .. كأنها حزمة من الأعصاب لا من
الأوراق ..

هذه هى نانى .. وهذه هى القصة التى كنت أبحث عنها خلف
عينها ..

وضعتها بجانبى فى رقة كأنى أوسد جريحاً .. وعادت كل كلمة

فيها ترن في أذني .. كل شخص يطار دني .. ويتمثل لخيالي ..
وكأني أعرفه من زمن بعيد .. وكأني عشت معه ..

كلهم تجمعوا حولي .. الأب الحنون الذي يتعذب في صمت ..
والأم القاسية .. والأخت التي ماتت وبعثت .. بعثت في دمي أنا
أيضا .. والزوج وناني ..

لم يعودوا يتحركون وحدهم .. أصبحت أتحرك معهم ..
وأشاركم مصيرهم ..

وخلف الظروف التي تباعد بيننا وجدت الخيط الذي يربطنا نحن
الاثنين أنا وهي ..

كل منا ضاعت حياته .. وهو يبحث عنها ..

ضاعت نفسه .. وهو لا يجدها ..

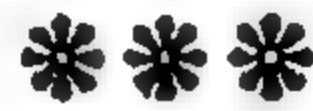
كل كلمة قرأتها وثقت هذا الحبل الخفي .. وعقدت بيننا ذلك
القران الحرام الذي لا مفر منه .. !

انها لا تعرفني .. ولكنها مع هذا قد سلمتني مفاتيح عالمها الخاص
لأدخل فيه ..

ولعلها عرفتني بما فيه الكفاية حينما نظرت في عيني فوجدت
نفس العالم الذي تسكنه .. وشعرت بأواصر الضياع التي تربطنا
دون أن نتكلم ..

ناني .. أشعر بها قريبة مني .. أشعر بها حولي .. في داخلي ..
الى جوارى .. أحبها .. أحبها .. بنفس اليأس الذي تكره به
زوجها ..

ناني ..
ولم أستطع أن أصبر ..
ولم أعرف ماذا أفعل بالضبط .. وانما وجدت نفسي أدير قرص
التليفون على رقمها :
- ناني .. أريد أن أراك في الحال ..
وكان صوتي يرتجف من العاطفة ..
ولبثت صامته برهة على الطرف الآخر من التليفون ..
وسمعت صوت لهثاتها .. وصوت أفكارها .. وصوت قلقها ..
ثم أجابت في استسلام .. وبلا وعي .. في يأس .. كأنها امرأة تمشي
في نومها :
- طيب ..



كانت تجلس الى جوارى في العربة .. وأنا أسير ببطء في طريق
خال على أطراف القاهرة .. وكانت تقول لي :
- هل قرأت الأوراق كلها ؟ ..
- وعشت فيها .. كلمة .. كلمة ..
- وهل تجد أن لي حلا .. ؟
- أنا لا أجذ لك ولا لنفسي حلا .. !
والتفت التي في دهشة :
- وما دخلك أنت ؟
- وما الذي جعلك تلقين بين يدي هذه الأوراق على خطورة
ما فيها ؟

— لا أدري .. ولكنى كنت أشعر دائما أنك لست غريبا عنى ..
كنت أشعر أنك وحيد تماما مثلى ..

وسكتت لحظة ثم أردفت :

— أليس هذا غريبا .. أن يشعر رجل بالوحدة .. ان الدنيا كلها
دنيا الرجل .. انكم تستطيعون أن تفعلوا كل شيء ..

— وما جدوى أن تفعل أى شيء .. اتنا نريد ما تهواه أنفسنا ...
— وما الذى تهواه نفسك .. ؟

— أريد أن أعيش .. أريد أن أحب وأتزوج وأنجب ولدا ..

— ألم تشعر الى الآن أنك قد تزوجت وأنجبت ولدا ؟ ..

— انى أشغل وظيفة زوج وأب ، ولكنى لست متزوجا ، ولا

أبا .. !

— ولكنكم تستطيعون تغيير وظائفكم أحيانا يا رجال ..

تستطيعون الطلاق والزواج مرة .. وأخرى !

— ليست لدى القوة ولا القسوة الكافية لأفعل هذا .. أنا

أضعف من أن أغير حياتى .. وأقوى من أن أقبلها ..

— إنك تتكلم مثلى .. أنت الرجل .. من يصدق هذا ؟!

وسكتت لحظة ثم قالت :

— ومع هذا فلا أحد قد أكرهك على هذه الحياة .. لم يزوجك

أحد عنوة .. !

— لم أتزوج عنوة .. ولكنى تزوجت خلسة دون أن أدري ..

— وما ذنب زوجتك ؟ .. وما ذنب الولد الصغير .. ؟

- ليس لأحد ما ذنب .. انى لا أشكو أحدا ..
- ها أنا ألومك .. وأنا غارقة فى الذنب حتى أذنى .. ماذا أقول ؟ ماذا أفعل ؟ .. ما الحل ؟ ..
- الحل هو أن نعلم .. أنا شخصيا أبحث عن حلم أنشغل به وأتوه فيه .. ولكنى متيقظ .. متيقظ دائما .. وهذه اليقظة تعذبني ..
- ولكنك رجل .. أليس كذلك ؟ .. والرجل يستطيع أن يفرق همومه فى عمله ..
- ان عملى مثل زوجتى .. غريب عنى .. لا أحبه .. أنا أملأ به وقتى فقط .. ولكنى أريد أن أملأ نفسى .. ان الفراغ الكبير هنا .. داخلى .. أشعر أنى عاطل تماما .. أشعر بالملل يقتلنى ..
- انك تعذب نفسك بدون داع ..
- أريد أن أشعر بالحماس .. أريد أن أتحمس .. أريد أن أتحمس لشيء ولو كان هذا الشيء ارتكاب جريمة .. انى أحيانا أحسد المجرم لأنه ارتكب جريمته فى غل .. أنا أريد أن أشعر بالفعل نحو أى شيء ..
- ألم تحب ؟ .. ألم تشعر بالحب مرة فى حياتك ؟ ! ..
- أحيانا أقنع نفسى أننى أحب هذه أو تلك .. ولكنى لا أستطيع أن أستم فى الكذب على نفسى طويلا ..
- لاشك أنها تكون مغامرات مسلية ..
- انها تكون مسلية فى البداية .. لكنها تكون قاتلة فى آخرها ..

حينما أشعر أنى قد فقدت القدرة على السعادة الى الأبد ..

.. انك تبالغ .. لاشك أنك تبالغ كثيرا .. ان الدنيا فيها لحظات سعيدة بالرغم من كل هذا .. انى احيانا أجد السعادة فى أشياء صغيرة جدا .. فى نظرة من عين ولدى ..

كانت تحاول أن تسرى عنى .. وكان يبدو على وجهها أنها تشعر بالراحة .. وكنت أشعر بالراحة لأنى وجدت انسانا أياس معه .. وآمل معه .. وأسخط على الحياة معه ..

أكان حبا .. ؟

أكانت أناية منا نحن الاثنين ؟ .. كل واحد يجد نفسه فى الآخر .. يجد مصداق حياته ماثلا أمام عينيه .. لا أدرى ..

كل ما أعرفه أنى كنت أريد أن أتكلم .. وأتكلم ..

لم أكن أريد أن أكف عن الكلام ..

وكنت أشعر أن الوقت ضيق .. وأن ما أريد أن أقوله كثير .. كثير جد ..

ولم أفق من الحشى تلتنى كنت فيها الا حينما نبهتني الى أن الوقت متأخر وأنا يجب أن نعود الى البيت ..

ولكنى ما كليت أعود وأبستقر وحدي فى غرفتى حشى شعرت بحاجة شديدة الى أن أكلمها .. وما لبثت أن رفعت السماعة فى تردد ..

كانت وحدها .. وقالت لى أنها كانت على وشك أن تطلبنى ..

شعرت بسعادة لا توصف .. وقلت لها فى أسف :

— أنا أشعر بخجل شديد .. لأنى قضيت كل الوقت معك ..
وأنا أتحدث عن نفسى .. كانت أنا نية منى لم أكتشفها الا حينما
عدت الى البيت .. اغتفري لى سوء أخلاقى ..
— انك دائما تحاول أن تحمّل نفسك ذنبا .. لماذا تضطهد
نفسك؟! ..

— أنا لا أضطهد نفسى .. ولكنى لا أريد أن أكون همًا يضاف
الى همومك .. لا أحب أن أكون طفلا كثير الصراخ يضاف الى
أطفالك .. فلديك ما يكفيك !

— أنت لست طفلا .. أنت عجوز جدا .. يخيل الى أنك ولدت
عجوزا كهلا .. اتنى أشك فى أنك عرفت الطفولة يوما ما .. ان
الطريقة التى تمشى بها .. والطريقة التى تنظر بها .. هى طريقة رجل
كهل جرب كل شيء .. وانهى من كل شيء .. !

— هذا صحيح .. أنا أشعر أحيانا أنى عجوز جدا ..

— أترك نفسك على سجيته .. لا تضطهد نفسك بكل هذا
التفكير .. دعنى أكون طبييتك النفسية ..

— حاضر يا دكتورة .. وماذا عندك من تعليمات أخرى .. ؟

— حذار من المغامرات المسلية .. فان قلبك العجوز لم يعد
يحملها ..

— حاضر ..

— وابحث لنفسك عن عمل تحبه .. عمل مضنى مرهق لتشغل
نفسك به طول النهار وتعود متعبا لتنام ..

— لقد وجدت هذا العمل من الآن ..

— ما هو .. ؟!

— أنت .. أنت ستكونين على المضنى الذى أحبه .. وأشغل
نفسى به طول الحياة .. !
وسكنت لحظة .. ولم تجب .. وسمعت صوت لهثاتها .. ثم
قالت باضطراب :

— لقد اخترت عملا يائسا .. خاسرا .. لقد اخترت سما تتعاطاه
ولم تختار دواء .. أنت تريد الموت لا الحياة ..
— لقد فقدت القدرة على أن أعيش كما أشتهى .. دعيني أمت
كما أشتهى .. !

— أنا أحمل من الذنوب ما يكفينى .. لا أريد أن أحمل ذنبك
أنت أيضا .. لقد حطمت حياتى .. ولا أريد أن أحطم حياتك معى ..
أنت أغلى من أن أختار لك هذا المصير .. أنا أريد لك السعادة ..
— أنت سعادتى .. أنا أحبك .. أحبك يا نانى ..
وسكنت .. هذه المرة سكنت طويلا .. وسمعتها تبكى بحرقة ..



- ٧ -

كنت أقف أمام الحوض .. رأسى تحت الحنفية .. والماء ينزلق
على شعرى .. وعيناي ما زالتا مثقلتين بالنوم ..
ومن خلفى كانت أمينة تحمل القوطة .. وكنت أسمعها تتكلم ..
وصوتها مبجوح من البكاء طيلة الليلة الماضية .. ولكنه ثابت ..
جاد .. فيه نبرة شديدة لم أعودها ..
كانت تكلمنى عن أطياني فى الصعيد .. وعن خطاب جاء من عند
الخولى .. يطلب نقودا للزراعة .. وكانت تقول ان والدى كان
يذهب بنفسه .. ويباشر العمل .. ويفتش على أرضه وزراعته ..
وأنى أهملت كل شيء .. وأن الفلاحين يسرقوننى .. وأنى سوف
أفقد أملاكى وثروتى اذا لم أفتح عينى جيدا .. وكانت تتكلم
بشدة ..

— لا بد أن تسافر للصعيد .. وتباشر أرضك بنفسك .. ان أباك
لم يجمع هذه الارض بسهولة .. لقد ضيع فيها عمره ..
وأحسست بالخجل من نبراتها ..
وأحسست بالضيق لأنها ذكرتني بالمسئوليات ..
وأخفيت وجهى فى القوطة ورحت أحك رأسى عدة مرات .. وأنا
ما زلت أمضغ ذلك الضيق الذى استولى على ..
وذهبت الى مكتبى .. ورحت أفض الخطابات ..
كان لا بد من السفر الى الصعيد .. ومباشرة الزراعة فعلا .. فلا

أحد هناك سوى الخولى .. وهو يفعل كل شيء على هواه .. يزرع
ويجمع ويحصد ويبيع ويشترى .. ويكتب ما يشاء من مصاريف
وايرادات .. ويأخذ ما يخلو له ويدفع ما يخلو له ..

كان من الواجب عمل شيء ..

وضايقتنى كلمة الواجب ..

وحينما بدأت أعد الحقائق للسفر أحسست أن أرضى هى التى
تملكنى .. ولست أنا الذى أملكها .. !

هى التى تجثم على أكتافى .. وتركبى .. وتسوقنى .. الى حيث
لا أريد .. لأن الواجب كذا .. وكذا ..

أف من الواجب ..

الصعيد ! ..

مالى أنا ومال الصعيد !! ..

أنا أريد البقاء بالقاهرة .. الى جوار الدفء الجديد الذى أخذ
ينبعث حولى ..

فى الشارع الذى أخضرت أشجاره فجأة وأورقت وأزهرت ..

أمام الشباك الذى تنادىنى منه الشمس ..

والتليفون الذى يهس فى أذنى بكلمة الحب ..

ولكن الواجب .. الواجب .. وشعور بالخجل يملأنى ، فأصاغر

فى نظر نفسى الى مجرد طفل يبذل الثروة التى جمعها أبوه ..

وأكره نفسى وأكره ثروتى .. وأتمنى الخلاص من الأرض التى

تقيدنى .. ان أبى ما زال يحكمنى .. ان الفدادين الملقاة على أطراف

سوهاج .. هي روحه .. هي رغبته .. هي كلمة الواجب التي كان
يضاردينى بها وأنا صغير ..

وصفر القطار طويلا .. وألقيت بنفسى فى عربة النوم ..

وأحسست بذهنى يصفو وروحي تهدأ .. وذابت الدوشة التي
كانت تأخذ بتلابيبى كما تذوب الرغوة التي تعكر وجه الفنجان ..
وبدأ ذلك الشيء الغامض الذى يحيرنى يطفو .. شيئا فشيئا من
أعماقى ..

ها أنذا فى النهاية ملقى فى عربة تجرى من بلد الى بلد .. من مكان
غريب الى مكان غريب .. لا شيء يشعرنى بالألفة سوى اجساد فى
داخلى أطويه عليها .. على خيالها .. على اسمها ..
اسمها يشعرنى بالألفة يأنى مع نفسى ..

وتذكرت كلماتها وهي تقول لى :

— أنت تعذب نفسك بدون داع .. أنت تبالغ .. تبالغ كثيرا ..
ان الدنيا فيها لحظات سعيدة بالرغم من كل هذا . انى أحيانا أجد
السعادة فى أشياء صغيرة جدا .. فى نظرة من عينى ولدى .. انك
عجوز جدا .. يخيل الى أنك ولدت عجوزا كهلا .. ان الطريقة التي
تمشى بها والطريقة التي تنظر بها .. هي طريقة رجل كهل جرب كل
شيء وانهى من كل شيء ويئس من كل شيء .. لماذا تضطهد نفسك
بكل هذا التفكير ؟!

وصوتها الحنون وهي تهمس :

— أنت أغلى من أن أختار لك هذا المصير .. أنا أريد لك السعادة

لقد حطمت حياتى ولا أريد أن احطم حياتك معى .. انا احمل
من الذنوب ما يكفينى .. ولا أريد أن احمل ذنبك أنت أيضا ..

بل احمل ذنبى أنا أيضا .. وحطمت حياتى ..

أنا أريد أن أشعر بالولاء لأى شىء ولو لدمارى ..

أريد أن أعثر على رغبتى الضالة .. ونفسى المفقودة .. فيك أنت

.. نانى .. نانى ..

وظل اسمها فى أذنى .. طول الطريق والعجلات تجلجل تحت

الوسادة حيث أضع رأسى .. والمربة تهتز واللمبة الكهربائية فى

السقف ترتعش ويخبو نورها ثم يتألق .. ثم هدأت سرعة القطار ..

وسمعت صوت القرامل .. ثم توقف القطار تماما ..

وظننت أنها محطة .. وفتحت النافذة ولكنى لم أجد محطة ..

ورأيت القطار يقف فى العراء وسط الحقول .. والدنيا ليل ..

والظلمة حالكة ولا صوت هناك سوى صوتنا ونحن نطل من

النوافذ وتكلم .. يقاطعنا بين حين وآخر صوت ذئب يعوى فى

الحقول ..

وقال الكمسارى ان هناك عطلا فى الخط وأن القطار سيتوقف

نصف ساعة .. ودخلت عربتى ولبست فى فراشى ونظرت فى نور

اللمبة الذى خبا تماما .. وثقلت أجفانى .. ونمت ..

لم أتيقظ الا والكمسارى يذق الباب بشدة ويصيح : سوهاج ..

وقمت الى حقيبتى أسويها .. ولبست ثيابى وفتحت الباب ونزلت

مسرعا ..

سلامات .. والله سلامات .. كيف الحال في مصر ؟ .. طيبون
حلت البركة ..

ده الصعيد نورت .. ألف حمد الله على السلامة ..
روح ياواد لعنك بشاي عيط عليه .. جول له ان البيه وصل من
مصر .. والله سلامات .. والله مرحبا .. مشتاقين ..
الاخبارية وصلتنا ليلة البارحة .. جينا لتونا في الحلزونة
(الأتويس) ومن الضبح واحنا واجفين عاد .. كل ما ييجي جطر
نجلو أهو وصل ونطل ما نلاجيش حد .. ان شاء الله تكون
مبسوط ..

كان المتحدث هو سر كيس أفندي .. الكاتب .. والخولي الذي
يدير زراعتنا .. وكان يهب واقفا كل دقيقة ويشد على يدي ويهزها
في عنف ويهتف : ان شاء الله تكون مبسوط ..
وأنا في كل مرة أهب واقفا مثله .. وأشد على يده .. وأمرى لله ..
وكان يصاحبه فلاح طويل هزيل كالح البشرة .. أشيب الشعر ..
يشبه الجراد .. عيناه ضيقتان حمراوان غائرتان .. وهو لا يكف
عن وضع أصابعه فيهما بين لحظة وأخرى ويفركهما بشدة ..

وركبنا عربة بالأجرة أخذتنا الى الأرض ..
واستقبلنا الخفراء بإطلاق النار في الهواء ..
وتجمع الفلاحون حولنا .. وكادت يدي تنخلع من كثرة المرحاب
والسلامات ..

وكان الجو صحو والسماء صافية .. ولكني كنت أشعر
بانقباض ..

كانت الوجوه التي تبسم حولي هضيمة كالحة غرباء .. وكانت
تسامتها شاحبة .. وكان فيها شيء ثقيل .. مثل التراب الذي في
لجو .. والجفاف والسخونة والهواء الراكدة ..

ودخلنا الاستراحة .. وكان الخفراء مازالوا يطلقون النار في
الهواء ، والحمام يطير في فزع من أبراجه ويحلق فوق رؤوسنا .
وكان سر كيس أفندي ما زال يثرثر ويتكلم كلاما كثيرا .. يقطعه
بين حين وآخر هاتفا : ان شاء الله تكون مبسوط ..

وجلست أدخن وفتحت الدفتر أمامي .. وجرت عيني على السطور .
١٢ نفرا لعزيق الفدان قمح بواقع ١٢ قرشا يومية للنفر ..
المجموع ١٤٤ قرشا ..

٦ أتقار لسقية الفدان بواقع ١٢ قرشا للنفر .. المجموع
٧٢ قرشا ..

٣ أكياس سماد للفدان بواقع الكيس ٥ جنيهات . المجموع ١٥
جنيها ..

احتياجات الماكينة عن أربع سقيات للفدان ٤ جنيهات ..

أجرة مشال المحصول للجرن بالجمال ١٢٠ قرشا ..

أموال مقررة .. ٢٥٠ قرشا رسوم بلدية .. ١١٠ قروش ضريبة
جراد ..

ومررت على الأرقام بعيني عدة مرات .. دون أن أفهم شيئا ..

وخرج سر كيس أفندي الى الحقل ليحضر فرسا اركبه .. وبقيت
وحدى مع عوضين الفلاح الذي يفرك عينيه ..

سأله : لماذا يفرك عينيه هكذا فقال انه ذهب الى الدير البارحة
وأخذ ترابا من كنيسة العذرة وضعه في عينيه .. ثم ابتسم وأردف :
— دى الحمد لله كبير .. دى كانت وارمة البارحة زى عين
الجمال .. قدس أبونا هو اللى طيَّبها ..

ولم أجد كلاما أرد به على الرجل .. وعدت أقرأ الحسابات ..
١٠ أنفار لرمى الكيماوى بواقع ١٢ قرشا يومية للنفر .. المجموع
١٢٠ قرشا للفدان ..

نصف أردب قمح تقاوى بمبلغ ٣ جنيهات ..
وتتحنح عوضين .. وفرك عينيه وسعل .. وهمهم :
— طيبون .. دى الصعيد فورت ..

وسكت قليلا ثم أردف :
— أنا لى مصلحة عندك يا سعادة البك ربنا يخليك ..
— خير .. يا عوضين ..

ورفعت رأسى من الدفتر ونظرت اليه ..
والله بدى كام فدان أأجرهم منك السنة دى عشان الزرعة
البتوية

— انت مش بتشتغل عندنا ؟
— لا والله .. أنا مأجر كام فدان جاركم فى حوض أحمد بك ..
وبالى أزرع كام فدان عندكم السنة بالايجار ..
— فأجر لك يا عوضين .. أما ييجى سركىس أفندى .. نشوف ..
— ربنا يخليك ياسيدنا البك ..

وخطر لى أن أسأله عن الزراعة ..
— والزراعة حالها كويس السنة دى يا عوضين .. محصول القمح
ازيه ؟ ..

— عال والحمد لله .. البركة نيك ..
— رميت كيماوى قد ايه فى القدان ؟ ..
— كيس .. الخمس فدادين خدوا ١٥ جنيها كيماوى ..
— وكنت مشغل أنقار كثير .. ؟
— ثمانية أنقار للقدان ..
وكنت أنظر فى الدفتر واقرا الأرقام العالية التى كتبها سر كيس
أفندى ..

كان من الواضح أنه بيمسر فى كل عملية على أساس أنى لا أفهم
شيئا فى الزراعة .. وأغلقت الدفتر .. وأنا أفكر فى حل ..
وحضر سر كيس أفندى ومعه الفرس وركبته وانطلقت ..
وتجولت فى الحيضان المجاورة أسأل النلاحين .. وتأكد لى ان
الخولى يسرق منى .. ومن عرق الفلاحين .. ومن كل حبة قمح
وعود قطن ..

وعدت وقد صممت على شيء ..
ناديت الخولى وأمرته بأن يسلم عهده الى عوضين ..
وقلت لعوضين .. انى سوف أعطيه خمسة فدادين يزرعها لنفسه
فى مقابل اشرافه على الأطيان وعمله كخولى عندى ..
وبهت سر كيس أفندى ولم يتكلم .. ودعالى لعوضين بطول
العمر ..

وانصرفت الى البندر وأنا أشعر براحة .. وأحس بأنى رددت
الأمور الى نصابها .. ونمت فى اللوكاندة .. ولكنى تيقظت فى الفجر
على البعوض يأكل وجهى .. وعلى خبر مفاجئ سرى فى كل البلدة
.. أن عوضين وجد مقتولا فى حقله . والفاعل مجهول .. !

وحضر سر كيس أفندى فى الصباح الى اللوكاندة .. وكان يحمل
طبينة على صدره .. ويصاحبه خفير الغيط ..

وقال لى ان عوضين وجد مقتولا .. الأشقياء قتلوه على تار
بايت .. مسكين عوضين .. !

وأردف وهو ينظر الى نظرة جامدة :

— تشوف حضرتك نعين مين خولى بدله عشان يشوف الأرض ؟
— اللي تشوفه يا سر كيس أفندى ..

وعاد ينظر الى نظراته الجامدة الجافية وعيناه لا يهتز لهما رمش ..
وأجبتة وأنا أتجنب النظر الى عينيه :

— شوفها انت يا سر كيس أفندى .. بس خد بالك من الحسابات
شوية ..

— أنا محسويك يا سعادة البك ..

ودار على عقبيه وخرج ..

وظلت خطواته تلاحقنى وتدوى فى أذنى مدة طويلة ..

وأدركنى اليأس .. ولم أستطع أن أبرئ نفسى من الجريمة ..

لقد قتلت رجلا .. بعد ساعة من وصولى الصعيد قتلت رجلا ..

وتذكرت كلام الخواجة مترى ..

ان الأرض هى لحم الفلاح .. والذي ينتزع من الفلاح أرضه
ينتزع لحمه .. ولا فائدة من أن تقول للفلاح أنت تخرق القانون ..
فماذا يعنى القانون بالنسبة لرجل جاهل .. !

ان رجله تفوصان فى الطين .. وحياته ينهش فيها المرابى وبنك
التسليف والمالك والمستأجر وسركيس أفندى .. كل واحد يطلق
عليه الرصاص .. !

ونمرء يومان على اقامتى بالصعيد ..

النتيجة على الحائط تقول انى فى عام ١٩٥١ .. ولكن كل شيء
حولى يمشى يبطء جدا .. عشرات السنين وراء التاريخ .. !

القسوة فى كل مكان .. فى الحر .. فى التراب .. فى الجفاف
.. فى الأرض .. فى الفيضان .. فى الوجوه .. فى العيون .. فى
التمن الذى يدفعه كل انسان فى مقابل اللقمة .. !

الفلاح الذى يمرض مقدما بالبلهارسيا والملاريا والرمد قبل أن
يعنى وجوده .. ثم يمشى يلهث ويجر قدميه .. ويعزق .. ويحرق
.. ثم ينازعه جاره على قيراط برسيم ويقتله .. !

والفلاح الآخر المحظوظ الذى يملك فدانا ويعيش كالجرادة على
حافة التربة .. لا يعرف السينما ولا الساعة ولا الدكتور .. ثم يضع
حفنة من تراب العذرة فى عينيه .. ويعطيه رجل مبروك حجابا يعلقه
على صدره ليشفى .. بينما يذهب المبروك ليداوى عينيه فى القاهرة
عند طبيب العيون ..

والتاجر الريفى العبيط الذى ينظر الى البورصة كما ينظر الى
السماء والقدر .. وكرامات الأولياء .. ويفلس بغباء .. ويموت بغباء
كما يموت حماره ذون أن يعرف السبب ! ..

وابن العمدة الوارث الذى ينفق أمواله على راقصة فى مصر
ويموت من الخمر والمخدرات .. كل هؤلاء ينبحون ويتعاونون ..
كأنهم فى غابة ..

قسوة الحياة تبتز أرواحهم .. وأخلاقهم وتحولهم الى أجلاف
غلاظ .. وقد أحسست بهذه الغلظة تتسرب التى وتدفعنى الى رفع
صوتى بالسباب والشتائم ..

سنة واحدة أعيشها هنا .. وأصبح مثلهم .. أتكلم بغلظة ..
وأقتل وأسرق وأنهب .. لقد نسيت ذقنى فلم أعد أحلقها .. ونسيت
هندامى .. ورباط عنقى

ونسيت الرجل الذى قتل من أجلى .. عم عوضين .. الذى
أطلقوا عليه الرصاص .. لأنى اخترته ليدبر زراعتى ..

من الذى قتل عوضين !! .. سركيس أفندى !! .. الخفراء
بتحريض من سركيس أفندى !! .. إنا بغيائى !! .. القدادين التى
جئت أجرى من القاهرة لأجمع أيرادها !! ..

الحر .. التراب .. الجفاف ..

لقد قيدوا الحادث فى دفتر البوليس ضد مجهول واحد .. !

ليس لى ان اتحدث عن الغلظة ..

ان القتل عمل غليظ فعلا .. ولكن تناول النقود المغصمة بالدم

وانفاقها في هدوء في بارات القاهرة بين الرقص والضحك .. عمل
أشد غلظة .. !

وشعرت باليأس .. وبالنفور ..

.. وشعرت بغلظة هذه التجارة التي تأتيني أرباحها كل عام ..
وشعرت اني شريك في كل الجرائم التي حدثت في زمام العناية
منذ أن وضعنا يدينا عليه ..

وعند الظهر .. كان سر كيس أفندي يتجول بي في غيط القطن
في مظاهرة من الأولاد الصغار الذين يجمعون القطن ويغنون ..
وكان يحاول ان يطلعني على حسن ادارته وحزمه .. يطارد الأولاد
ويشخط فيهم ويجري خلفهم بعصا قصيرة من الخيزران .. ويضربهم
.. وكانت الشمس مشرقة فوق رؤوسنا .. تلسعنا بشواظ من
نار ..

وأغمى على أحد الصغار من طول وقوفه في الشمس وحملوه
الى الترعة ليرشوا على وجهه الماء .. وكانت يده النحيلة مضمومة
الى صدره تقبض على كسرة خبز جافة ..

واكتفيت بما رأيت .. ولم أنتظر نزول المساء .. وأخذت قطار
العودة الى القاهرة .. وقد صمت على أن أطلق هذه الأرض الى
الأبد ..

وكان أول شيء فعلته حينما وصلت القاهرة هو أني كلمت تاني
لأقول لها :

— سوف أترك الأرض نهائيا .. سوف أبيع فدائين وافتح ورشة
لإصلاح السيارات أعمل فيها كمهندس .. عملي الوحيد الذي
أتقنه ..

أنا لا أتمنى للأرض .. ليست لدى الشجاعة لأقتل وأسرق ..
إن رؤية القسوة ترهقني .. والاستمرار في هذه الحياة التي
اختارها أبى لنفسه مستحيل .. مستحيل .. بالنسبة لى ..
— وحياتك .. والمستوى المادى الذى تعيش فيه .. كيف تترك
ثروتك ؟ .. ولمن تتركها ؟ ..

— انى لا أتركها .. إن الفلاحين يضمنون يدهم عليها ..
يستأجرونها ولا يدفعون مليما .. ولا أستطيع أن أقاضيهم ... لقد
تعبت .. تعبت من المناظر التي رأيتها ..
— أنت طيب أكثر من اللازم ..

— لست طيبا .. ولكنى لا أستطيع .. لا أستطيع أن أكون شيئا
آخر غير نفسى .. أفضل أن أعيش حياة صغيرة أملكها .. عن أن
أعيش حياة كثيرة تملكنى .. أريد أن أكون حرا .. أريد أن أقطع
صلتى بكل ما يفرض على واجبات لا احبها .. أنا أكره الواجبات
كلها ..

— وهل تستطيع الخلاص من واجباتك كلها ؟ .. انى أحاول
الخلاص من واجباتى الزوجية منذ سبع سنوات ولا أستطيع ..
لا أستطيع سوى أن أجن فقط .. الجنون هو الشيء الوحيد الذى
وصلت اليه .. وأنا لا أريد لك أن تبجن مثلى .. تستطيع أن تتخلص

من أرضك .. ولكن ستبقى هناك وإجبات على كتفك لا خلاص
منها ..

— ناني أرجوك ساعديني .. لا تسدي أمامي المنافذ .. لا تبني
في وجهي حائطا غليظا .. هات يدك لنحفر سويا حفرة في الجدار
نهرب منها الى عالم نحبه ..

— نهرب الى أين .. أنت تعلم ..

— لا توقظيني اذن .. دعيني أحلم .. دعينا نعلم معا .. ناني
أرجوك ..

— يا حبيبي ..

— ناني ..

— يا حبيبي ..

— أريد أن أستريح .. أن أضع رأسي على صدرك وأستريح ..
أن أجد نفسي بين ذراعيك .. أن أشعر بلحظة رضى .. أنا ألث من
التعب هاربا من عالم لا أعرفه .. ولا أحبه .. اليك أنت ..

— يا حبيبي ..

— تعالى يا ناني ..

وسكنت .. وسمعتها تبكي ..



كنا وحدنا أنا وهى ..
وكنت أنظر فى عينيها فى شغف .. ولا أشبع .. وأتطلع فى ملامحها
الدقيقة .. وتعبيرات وجهها .. وخلجاتها .. وأستشف نفسها ..
وأهيم فى وجودها وأندمج فيه فى استمتاع وتلذذ عميق ..
وكانت نظراتنا تتماسك وتتشبث ببعضها .. وتلوذ ببعضها ..
وتسعى كفى الى كفها الصغير لتأخذه وتنضم عليه فى حنان ..
ثم أرفع يدها الى شفتي أقبلا .. وتنام شفتي فى باطن يدها ..
وأشعر بها تقبلنى فى خدى .. وأشعر بشفتيها تبحثان عن شفتي
وهما ترتجفان ..

وتلتقى شفطانا فى فرحة .. ونغيب عن وعينا .. وعن الدنيا ..
وتذوب فى بعض .. فى فيض من النبوة .. منتهى النبوة ..
أحبك .. أحبك جدا .. أحبك طول عمرى .. أحبك الى أن أموت
وبعد أن أموت .. وقبل أن أولد .. أحبك .. أحبك .. وما لزوم
الكلام والشعور يخنقنا .. يسكتنا ..

نانى .. أنا لا أريد شيئاً سواك أنت .. سوى هذه اللحظة .. تنتظر
قليلاً لأنعم بها .. أنا لا أريد أن أستيقظ على هذه اللحظة وقد انتهت
انى أجد فيها سبب وجودى .. لقد خلقت من أجل هذه اللحظة ..
خلقت لأكون لك .. نانى .. هذه لحظة تبدأ من عندها أفراحي
وآلامي ..

وتلتقى شفتانا في فرحة .. في لذة ..
هل أنا أحلم ؟ .. قبليني لأفوق .. بل قبليني لأحلم أكثر ..
— يامجنون .. يامجنون ..
— أنا لست مجنونا .. أنا كأعقل ما أكون طول عمري ..
— اذن فأنا المجنونة .. أنا .. أنا ..
— أنت حييتي ..
— يا حبيبي يامجنون ..
— فيم تفكرين ؟ ..
— أفكر في أنى ولدت من جديد .. وأنى أعيش معك في عالم ليس
فيه سوانا .. عالم لا ينظر إلينا في حسد وحقد .. عالم لا يوقفنا من
سعادتنا ..
— لا أهمية للعالم مادما معا ..
وأمسكت بي في خوف وهي تتحسنى لتؤكد من وجودي
بجوارها وهمست :
— لماذا تتأخر الآمال هكذا دائما ؟ .. لماذا تسقط الأمطار بعد أن
يموت الزرع من الجفاف ؟ ..
— ان الزرع لم يمت .. انه مازال يانعا مخضرا ..
وبكت على كتفى وهي تقول بصوت متهدج :
— يا وهمى الجميل .. يا وهمى الجميل ..
— أنا لست وهمك .. أنا حقيقتك .
— أبدا .. أنت وهمى .. أنا لا أستطيع أن أمسك بك .. أنت

تهرمنى .. لا أجذك بجوارى ..

— أنا بجوارك دائما ..

— أنت فى وهمى .. فى قلبى .. فى مهجتى .. وسواد عيني ..
ولكنك لست فى بيتى .. لست فى واقعى .. عرق كفيك ليس فى الفراش
الذى أنام فيه .. شعرات رأسك ليست على وسادتى .. ثيابك ليست
مع ثيابى فى سلة الغسيل .. بقايا الخبز الذى تأكله ليست على
مائدتى .. قصاصات الورق التى تتخلف منك لا أجدها على أرض
غرفتى .. ولدك ليس منى .. وولدى ليس منك .. صوت سعالك
الحاد لا أسمعه فى حجراتى الباردة .. أنا أعيش فى غربة .. أعيش على
وهم وجودك .. على أمل رؤيتك .. هل تعرف كيف أحبك ؟ .. هل
تعرف كيف تحب المرأة الرجل ؟ .. انها تحلم أن تكون سكنه وطعامه
وشرابه .. تحلم بأن تجمع شتاته على راحتها ..

ان الرجل يلثم المرأة فى شفيتها ثم يمضى فى طريقه .. أما المرأة
فهى تعيش فى تلك القبلة ..

أتعرف لماذا أتيت معك الى هنا ؟ .. لأزود من وجودك بثبوتة
أعيش بها .. لأزود وهمى بثروة من الخيالات يتغذى عليها بقية
حياته .. لأذكرك أكثر .. وأتعرف عليك أكثر .. وأخاطبك فى لحظات
وحدتى وصمتى ولكنى لن أعود الى هنا .. لن أعود الى لقائك أبدا
لأن هذا ليس حبنى .. ليس أنا .. ليس أنا ..

وأخذت تهزنى بشدة .. وهى تكرر كلماتها بصوت متهدج .. هذا
ليس حبنى .. ليس أنا .. لن أعود الى هنا أبدا ..

ثم انفجرت تبكى بمرارة ..

وصرخت وأنا أضغطها الى صدرى فى حنان :

— سوف تتزوج .. سوف تتزوج .. سوف أنطق زوجتى ..
وأتزوجك بعد أن يطلقك زوجك ..

ونظرت الى فى فزع هاتفة بين دموعها :

— مستحيل .. مستحيل .. هذا هو المستحيل .. لا أستطيع ..
أبدا ..

— ولماذا لاتستطيعين ؟ .. ألا تحبيننى ..

وهمست فى ضراعة :

— نانى .. نانى ..

— أخاف من الله .. ومن رجلى .. ومنك .. ومن عيون أولادك ..
ومن عيون أولادى ! ..

— كل هذا لن يمنعنى .. ولن يمنعك ..

— هناك شىء فوق كل هذا يمنعنى أنا ..

— ماهو ..؟

— نفسى .. أخاف من نفسى .. ان الماضى يتغلغل فى حواسى ..

أنا لم أتزوج زوجى كرها ولا غضبا .. لقد ارتضيته .. صحيح ، أنى
لم أستطع أن أحبه .. ولكنى عاشرته .. ان الرجال لا يعرفون العشرة
كما تعرفها النساء .. لأنهم يعيشون كل وقتهم فى الشارع .. ولكن
العشرة تتغلغل فى الحواس .. فى الدم .. فى اللحم .. انى لن أكون
خالصة لك .. سوف تعود حياتى كلما دق علينا ولدى الصغير باب

غرفة النوم .. وكلما تطلع اليها بعينه الواسعتين فى تساؤل .. لن
أستطيع أن أسكته حينما يقول : بابا ..

انه أفعالى التى تلهث خلقى ..

وسكنت لحظة ثم رفعت وجهها وقالت :

— وأنت كيف تواجه زوجتك بكلمة الطلاق ؟.. كيف تواتيك
القوة لتنظر فى عينيها وأنت تلقى عليها اليمين ؟.. وحينما يمسك
الطفل بذيلك وأنت خارج .. كيف ستجد القوة لتنفض يده الصغيرة
عن ثوبك ؟.. انه أفعالك التى فعلتها .. كيف تنكرها ؟!

— لقد حدث كل هذا خلصة دون أن أدري ..

— ولكنه حدث ..

— سوف أتحدى الدنيا كلها لأحصل عليك ..

— سوف تتحدى الدنيا كلها .. ولكنك لن تستطيع أن تتحدى
نفسك .. لن تستطيع أن تتحدى أفعالك .. ان أفعالك هى ذراعاك ..

— سوف أقطع ذراعى لأصل اليك ..

— لا أحب أن أراك مقطوع الذراعين .. لقد أحبتك فى كمالك
وعذابك وضعفك .. ولم أحبك وأنت تقسو وتقتل وتقطع رحمك
وأوصالك .. سوف تصبح رجلا آخر .. وسوف أصبح امرأة أخرى
ولن يتعرف كل منا على صاحبه .. سوف نكون شريرين ينتقم كل منا
من الآخر .. !

— سوف أحبك الى الأبد مهما حدث ..

— أما أنا فأعلم جيدا ماذا سوف أفعل اذا تزوجتك ..

— ماذا ستفعلين ؟ .. —

.. سوف ألتقم منك ..

.. أنت مجنونة .. أنت مجنونة ..

— أنا لا أستطيع أن أخون نفسي .. انى أحبك بنفسى .. وأتقرب اليك بروحى وأعشقك من خلال روحى .. ولو خنت روحى فسوف أخونك وأخون الدنيا ..

— أنت لا تحييتنى .. أنت تِكْرِهيننى ..

وبهت لهذه الكلمة تخرج من شفتى ونظرت الى صامته وبكت ..
وأمسكت بها من كتفها .. ورحت أقبالها فى كل مكان من صدرها
وأهتف :

— لن يكون فى الدنيا حب اذا لم تزوج ..

— ليس فى الدنيا حب ..

— لا تقولى هذا يانانى ..

— ان الحب فى قلوبنا وليس فى الدنيا .. انه فى وهما فقط .. ان الدنيا لا تحتمله .. ولا تستطيع أن تحققه ..

— لا تقولى هذا الكلام .. انى أختق حينما أسمعك تردددين هذا الكلام ..

— ان الواقع هو الذى يخنقنا جميعا .. ان الحب فى قلوبنا عميق .. عميق .. ولكن الحب فى الواقع يخنق بالشهوة والغيرة والأنانية والمصلحة والعادة والملل والضجر ، وأنا لا أريد أن أختق حى لك بالواقع .. أريد أن أحتفظ به فى وهمى وأغذى به خيالى ..

— سوف تكونين سكنى وبيتى وحياتى ..

— لقد فات الأوان .. لقد سقطت الأمطار بعد أن جف الزرع ..
لا تعذب نفسك وتعذبنى معك .. ولا تثرثر كثيرا كالأطفال الصغار ..
أنظر الى .. احتضنى بذراعيك .. دعنى أملك هكذا .. دعنى
اتملى بالنظر اليك .. دعنى أتزود بمثونة أعيش عليها انعم كله ..
وأخذت تنظر الى فى هيام .. وكان فى عينيها فزع ..

كانت فى عينيها نظرات امرأة تودع شيئاً لن تراه ..
وأصابتنى عدوى الفزع الذى يطل من عينيها .. وأمسكت بها
أهزها ..

— انا سوف نلتقى مرة أخرى .. سوف نلتقى كل يوم .. كل
لحظة .. أليس كذلك .. ؟

وأجابت فى نبرة جامدة ثابتة وهى تنظر فى وجهى :

— انا لن نلتقى ..

— مستحيل .. مستحيل ..

— أنا لا أحب هذا اللقاء المأساوى .. انه ليس حبيبى ليس أنا ..
ليس أنا ..

— سوف تتزوج .. ونحقق الحب الكبير الذى تحلمين به ..

— ان حبيبى يتحقق فى قلبى وحدد .. فى وهمى .. ان كل الأمكنة
تضيق به .. وكل الحلول تضيق به .. انه المستحيل الذى أحتضنه فى
ضلوعى .. وقد ضاقت الدنيا به على رحابتها ..
وانهارت تبكى .. وكل جسمها يرتجف ..

ونظرت الى من خلال دموعها وغنمت :

— لماذا أعذبك ؟.. لماذا تركتني أعذبك هكذا ؟.. لماذا لا تقتلني ؟!

— ناني .. كفى هذيانا ..

— لماذا لا تقتلني .. ؟ !

ونظرت الى .. نظرت الى في شوق طفلة .. وهي تتعشقني بنظراتها

— هل عندك حل ؟..

— الحل هو أن أتزوجك ..

وضحكت ضحكة هستيرية وغنمت :

— أيها المعجوز .. انك لاتصلح زوجا لي .. اني أرفض أن أتزوجك

وقبلتني في جيني وهي تقول :

— أريد أن أحفظ هذه الخطوط الرفيعة التي في جبينك خطا

حتى أتذكرها كلها وأنا وحدي .. وأستحضر صورتك في خيالي ..

وأراك أمامي هكذا .. وأنا جالسة وحدي في البيت أرتجف من

البرد ..

— ناني .. لماذا جئت معي الى هنا ؟.. لماذا تقولين هذا الكلام ؟..

ونظرت الى .. ولم تتكلم .. وضحكت ضحكة غريبة يمازجها

البكاء ..

— لماذا فعلنا كل ما فعلناه ؟! .. لماذا تمسكين يدي هكذا ؟! ..

كأنك تعتصرينها ..

— أريد أن أتخلل يديك لأصل الى روحك .. أريد أن أستولي

على روحك .. أريد أن آخذ روحك ..

وضحكت فى خرقا :

— أنت تعذيتنى ..

— الدنيا هى التى تعذبنا .. الدنيا هى التى خدعتنا .. الدنيا
ادخلتنا فى غرفة مظلمة لنختار ملابسنا .. فلم نستطع أن نتعرف على
ثيابنا فى الظلام .. وخرجنا كل واحد يلبس لبسا غير لبسه .. ثم
تمزقت ملابسنا من ضيقها .. وبلت هدومنا الحقيقية من طول وضعها
على الرف .. وفى النهاية لم تبق لنا ثياب نستربها أنفسنا !!

— سوف تفصل لأنفسنا ثيابا جديدة ..

— سوف تفصلها من الخرق القديمة .. ولن تسترنا الا لحظات ثم
تتمزق ثانية !!

— فانى .. لماذا تتكلمين بكل هذا اليأس !!؟

— لأنى لا أجد حلا ..

— ولكنك تجدينى الى جوارك .. أليس كذلك ..؟

ونظرت الى فى ارياب وأخذت تتحسنى لتتأكد من ائى موجود
فعلا ..

— نعم .. هذا أنت كلك حولى .. كلك حولى ..

وامتلأت عيناها دموعا ..

ودقت ساعة الحائط عشر دقائق .. فرفعنا رأسينا فى وقت واحد
فى فزع ..

— الساعة بلغت العاشرة .. لقد سرقنا الوقت .. يجب أن أعود

جالا ..

وكانت الدقة الأخيرة مازالت تدوى في أذنى .. وكان صوتها كثيبا
ووقفت تسوى ثيابها وتصفف شعرها أمام المراة .. وكانت تعطينى
ظهرها .. وكان قلبى يهبط .. ويهبط فى ضلوعى .. حتى يصل الى
قدمى .. وأسرعت اليها أحضنها ..

— لا تنزلى الآن ..

— كيف ؟ ..

— ابقى لحظة .. أريد أن أكلّمك قليلا ..

— ماذا تريد ؟ ..

— أريد ..

وتلعثمت .. ولم أعرف ماذا كنت أريد ..

كنت أريد أن أقول أى كلام لأحتفظ بها أطول وقت ثماني ..
اتطلع اليها .. وأشم عطرها .. وأرى شفيتها وهما تنفرجان .. وأرى
عينيهما وهما تمتلئان بالشوق ..

كنت أريد أن أسمع صوتها .. وهى تجاوينى بأى كلام .. وقلت
لها فى أسى :

— نانى .. لا أريد أن أحس أنى سوف أفقدك .. ان هذا
الاحساس يقتلنى .. يقتلنى ! ..

— انك لن تفقدنى .. سأعيش لك دائما ..

— هل هذا صحيح ؟ ..

— لا يوجد شىء صحيح فى حياتى غيرك أنت ..

— ولكنك ذاهبة الآن .. أليس كذلك ؟

— أينما ذهبت فسوف تكون معي .. في كل بيت أدخله .. وفي كل كتاب أفتحه .. وفي كل نعمة أعزفها ..

— لا أريد .. لا أريد هذا اللقاء .. أنا أريدك أنت لحما ودما .. ونظرت الى في اشفاق .. ولم تكلم ..

وخلف العينين المشفقتين .. كانت تطل الحيرة .. حيرة لا حد لها .

كانت تسألني بعينيها .. ماذا أستطيع أن أفعل يا حبيبي ؟ .. أنا أحبك وأريدك .. وأتمناك .. ولكن ماذا أفعل ؟ كانت تتشبث بي فأتقطع في يديها .. ولا تجدني ولا أجدها .. وكلانا ممسك بالآخر .. كنت أقرأ كل هذا في عينيها .. وأنا أنظر فيهما .. ويداي مطبقتان على بديها ..

ولم أجد شيئا أقوله

وصحبتها في عربتي .. ولبثت صامتا طول الطريق ..

كنا سجينين نحن الاثنين .. سجينى عاطفة لا تستطيع الخروج في النور .. عاطفة تلوذ بالظلام .. عاطفة تعاقبنا على السعادة التي نسرقتها .. بالسجن .. والحياة في الخفاء في فزع ..

وكنت أتساءل .. لماذا نعاقب في جهنم .. والعذاب يتعقبنا على الأرض ؟!

الجزء يلحق بنا لحظة بلحظة .. قبل أن نلتقط أنفاسنا ..

وكنت أشعر بالضيق .. وبالحزن .. وبأنى مظلوم .. وأحسد تفضلاء على السكينة التي يعيشون فيها .. كنت أتعذب ..

ولم أجد ما أبته سخطى سوى العربة الحديد التى أركبها ..
فضغطت بقدمى على البنزين وانطلقت أطيرو فى سرعة خطرة .. وكان
الاحساس بالخطر يريح أعصابى .. ويسكت الضجة التى فى دماغى ..
وكانت نانى تشبث بذراعى فى خوف ..
— ماذا دهالك ؟ .. لماذا تسرع هكذا ؟ .. هل تريد أن تتجر ؟ ..
هل تريد أن تموت ؟ ..

هل أريد أن أموت ؟ ربما ..

— هل تحب الحياة ؟ ..

— نعم أحبها .. لأنك فيها ..

— هل تجزعين من الموت اذا متنا معا ..

— لماذا تقول هذا الكلام ؟ أنت تفزعنى ..

ونظرت الى بعينين واسعتين يغمرها الحنان ..

وارتاحت نفسى وأنا أنظر اليها ..

وكنا قد اقتربنا من البيت .. فهدأت من السرعة .. وتوقفت ..

وكانت هناك عربة أخرى قادمة من الأمام .. وأضاءتا بكشافاتها ..

وهمست نانى فى ذعر .. انه عزيز زوجى ..

ونزل عزيز من العربة .. ووقف ينتظرنا .. وكانت تبدو عليه

الدهشة ..



لم أبرح البيت طوال ثلاثة أيام ..
عصفت بي حصى ألزمتنى الفراش .. ولبشت أهذى .. وأنلوى من
آلام حادة فى عظامى .. وأثقل فى طوفان من اللهب .. ثم بدأت أفيق
وسكنت روى مثل شراع ألقى به الريح على شاطئ مهجور ..
وفتحت عيني لأجد زوجتى واقفة عند رأسى .. وفى يدها كوب من
الليمون .. وعيناها واسعتان .. مثل بحر من العسل ملىء بالحنان ..
وأراحت رأسى على كفيها لتسقينى ..
ونظرت الى عينيها .. وخارت قواى ..
ورنت فى أذنى كلمات نانى :
- كيف تواجه زوجتك بكلمة الطلاق ؟ .. كيف تواتيك القوة
لتنظر فى عينيها وأنت تلقى عليها اليمين ؟! .. كيف تجد القوة لتزع
ولدك الصغير من ثوبك وهو يتشبث بك عند الباب ؟! .. انه فعلتك
التي فعلتها ..
انك تستطيع أن تخون الدنيا كلها .. ولكنك لا تستطيع أن تخون
نفسك .. لا تستطيع أن تنكر فعلتك ..
انك حينما تخون نفسك تخوننى .. فأنت تحبى بهذه النفس ..
وتعشقى من خلالها .. مستحيل ..
ونظرت الى زوجتى .. ورأيت المستحيل ..
رأيت المستحيل فى البحر الساذج الحنون فى عينيها .. وسمعت

صوته فى بكاء ولدى .. وهو ينادىنى ..

وتذكرت كلمات ثانى .. وأنا أقول لها : سأزوجك .. سأحقق
الحب الكبير الذى تعلمين به .. وهى تجاوبنى فى ضعف :
— ان حبى يتحقق فى قلبى وحده .. فى وهى .. ان كل الأمكنة
تضيق به .. وكل الحلول تضيق به .. انه المستحيل الذى أحتضنه فى
ضلوعى ..

كنت أشعر بهذا المستحيل فى تلك اللحظة ..

كنت أشعر بارادتى تتكسر على عينى زوجتى وهى تنظر الى ..
ورغبائى تذوب أمام عريضة ولدى الصغير وهو يضع يده فى كمى ..
ماذا أفعل أمام البراءة .. ؟!

كيف أنظر الى البراءة فى عينيها وأصنعها .. ؟!

لا يوجد حل سوى أن أطوى ضلوعى على المستحيل .. وأعيش به
وحدى فى الظلمة .. أسجنه معى .. ويسجننى معه ..
يئست تماما .. وكانت زوجتى تحدثنى فى نبرة أسى :
— هل سمعت الصراخ أمس ؟

— أى صراخ ..

— لقد كنت محموما ..

— ماذا حدث ؟

— لقد تشاجر عزيز مع زوجته وضربها وكسر ذراعها .

وسقطت الكوب من يدى .. وغامت عيناى .. وأظلمت الدنيا
أمامى فترة ..

وأفقت لأجد زوجتي قد لك خدى .. وتربت على شعري .. ولم
تظن الى سبب ألى .. لأنها عادت تقول فى حزن :

— مسكينة نانى .. ان زوجها رجل متوحش !..

ومسكين أنا أيضا .. ياليتها تعلم كم أنا مسكين ..

وفى الظهر تلقيت هذا الخطاب من نانى :

أكتب لك ييدى اليمنى . ويدي اليسرى فى الجبس .. شكرا لله ..
انه أبقى لى يدا سليمة أكتب لك بها .

لقد ضربنى زوجى وكسر ذراعى .. مسكين أنا لا ألومه .. ولكننى
ألوم نفسى .. فقد كنت قاسية فى معاملته ..

أرهقنى بشكوكه وأسئلته وسبابه وفظاظته وغلظته .. حتى جن
جنونى وتطاوت عليه .. ففقد صوابه وهجم على كالوحش ... وأخذ
يضربنى حتى كسر ذراعى .

ليته أتى على البقية الباقية منى .. لاسترحت .. ليته أسكت قلبى
الذى يهتف باسمك ..

ان وجودى يرهقنى ..

ان عواطفى تصرخ .. وأنا عاجزة عن ضبطها .. عاجزة عن اطلاقها ..
أسير فى الحياة كدمية مشطورة نصفين .. تائهة مترددة .. نصف
ثائرة نصف مستسلمة .. أقوم بأفعال لا أقتنع بها .. وأقتنع بمبادئ
لا أعمل بها .. ضائعة .. ضائعة تماما .. أملى الوحيد مستحيل ..

لقد ظلمت أفكر بعد أن افترقنا .. كيف أوتيت الجرأة لأفعل كل

هذا؟ كيف خرجت من بيتي لأقابلك؟

كيف جرؤت؟

ولكنى الآن أعرف كيف حدث هذا ..

ان العذاب الذى أعيش فيه أفقدنى القدرة على التمييز .. كنت
كالمحكوم عليه بالاعدام الذى أباحت له المحكمة أن يطلب طلبا قبل
أن يموت ..

لقد أهدرت الظروف السيئة حياتى .. واستباحتم دمنى . وطاردتنى
حتى سلم المقصلة ..

ماذا هناك أكثر من أن تقطع رأسى؟ .. لا شيء ..!

وطلبت أن أراك ..

طلبتك قبل أن أموت ..

طلبتك وأنا أختنق فى غرفة الغاز ..

وأحسست لفترة وجيزة أن أى شيء من حقى .. أى شيء .. حتى
أنت ..

آه .. يا الهى ..

انى أستطيع أن أخاطبك أنت وحدك .. ولكنى لا أستطيع أن
أخاطب الناس ..

أنت وحدك الذى تفهمنى لأنك مطلع على داخلى .. لا أحد يفهمنى
سواك ..

أنا ساقطة فى نظر الناس ..

ولكنى أعيش فى جهنم ..

جهنم .. هى حياتى ..
لقد دفعت ثمن خطيئتي فى الدنيا .. وتغذت العدالة أمرها فى مصيرى
اتهى أمرى ..

لقد عوقبت وأعاقب كل يوم وكل لحظة .. بل أنا العقاب نفسه ..
إن الخطيئة شقائي وليست لذتي ..

انى أحسد الفضلاء ..
ان الفضيلة أمان وسكينة وحرية وسعادة ..
انها الجنة ..

انها مكافأة جميلة ..
أنا أعجب للفضلاء الذين ينتظرون ان يكافأوا على فضيلتهم
بالجنة أى جنة .. وهم فى الجنة فعلا ..

يا حبيبى ..
أجمل شئ فى هذه اللحظة أنى وحدى .. لا شئ معى سوى خيالك
أتملك أمامى بقامتك الطويلة .. ووجهك الأسمر الرقيق .. وعينيك
الحائرتين وهما تتدفقان حنانا وطيبة .. وأسمع صوتك الأجش ..
ونبراتك الرحيمة .. وأعيش فى انسجام مع روحك .. أتملى برؤية
نفسى فى مرآتك .. فى كلامك .. وخطواتك .. ولفقاتك ..
وضحكاتك ..

الساعة التى قضيتها معك .. تزودنى بزداد من الموسيقى لا ينفذ ..
يملاً وحدتى بالأنغام .. ويكشف لى جمالا خفيا وراء كل شئ ..

أتسمه بحواسي في لذة ..

فكرت كثيرا لماذا أحبك كل هذا الحب ..

نم أعرف ..

ربما لأنك حريتي ..

ربما لأنك ارادتي التي فرحت بها لأول مرة وأنا أقتحم بها الظروف
وأحطم كل ماحول من خير ومن شر لأصل اليك ..

ربما لأنك أنا .. وقد ظفرت بك .. وبنفسي في ذات الوقت ..

ولو أنني قد اخترت زوجي بكامل حريتي .. لما أحبتك .. ولما
عرفتك ..

أنانية ..

ولكن لا .. انها ليست أنانية الى النهاية .. هناك سر آخر ..

سر في الدنيا .. كشفت لي عنه فأصبحت أحبها .. وأشعر بجمالها
وأهتز لنسماتها .. وأتلذذ بالحياة فيها ..

سحر خفي في الوجود دلني عليه حبك ..

ما أكثر ما يستطيع الحب أن يفعله !!

اني أتذكر حال زوجي منذ سنوات حينما كان يحب أختي .. كيف
كان يضيء بشفافية حلوة .. وكانت أساريره تضحك في طلاقة ..
وحركاته تنساب في خفة ومرح ..

وأ تأمله الآن .. وهو ثقيل معتم جامد غليظ .. يتحرك في لزوجة
وبطء .. الكراهية تشيع في جسمه كما تشيع الرطوبة في المفاصل ..
كيف أشعر أحيانا وهو ينظر الى .. انه سوف يقتلني .. كيف أحاول

المستحيل لأفهمه دون أن أستطيع ، وكأته من مادة أخرى لا أستطيع
الامتزاج بها .. مادة ثقيلة ترسب في نفسى ولا تذوب ..

كيف تعاشر منذ سنوات .. ونحن منفصلان .. تتلامس بالجسم
فقط .. يجمعنا الاشفاق أحيانا .. فأتصدق عليه .. وأنا أتأفف ..
كأنى أتجرع دواء مرا .. ثم أعود فأثور عليه وأتلذذ بحرمانه وتعذيبه
والآن .. الآن وأنا أحبك .. كيف أشعر أحيانا .. أنى أحب كل
ما فى الدنيا .. وأنتى أحبه .. حتى هو أيضا .. وازداد قريبا منه ومن
أولادى .. وبيتى .. وأشعر بالصلة الوثيقة التى تربطنا كلنا ..
حبك رد لى قدرتى على أن أحب .. وأعطى .. ومنحنى القوة
لأغفر .. واتحمل ..

ان الكراهية شئ فظيع يوقف الدم فى القلب ..
وقد عشت طول عمرى أحارب الكراهية بدون سلاح .. أحاربها
وأنا أكره أن أحاربها .. وأكره نفسى .. كنت تعيسة .. تعيسة جدا!
أعس من أن أدافع عن حياتى ..
ولكنى الآن أحارب الدنيا .. بك ..

فكرت فىك وأنا أنام ..
واكتفيت وأنا أغضى عينى بأن أفكر فىك وأعيش فى معنى
وجودك ..

ولم يخطر ببالى أن أذهب اليك بجسمى .. وأحاول أن أقابلت ..
كان شعورى نحوك .. وشعورى نحو نفسى .. أكبر من ذلك الأجر

الزهد الذى تعدنى به هذه المقابلة ..

كان ملتقانا فى الخيال .. أرحب بكثير من العرفة التى التقينا بها ..
الواقع .. وكانت مسرتى بك أعمق ..

لا .. ليست الفضيلة .. كنا تبادر الى ذهنك .. هى التى منعتنى من
أن أسعى اليك .. فأنا لست امرأة فاضلة .. وأنا حبيبى هو الذى منعنى
احساسى بأن أى لذة أفوز بها معك بالجسد لن تطفىء عطشى .. ولن
تساوى عطشى .. وكل ما ستفعله .. انها سوف توسع هوة المستحيل
التي تقف نحن الاثنان على حافتها .. وتزيد حسرتنا .. ويأسنا ..
وعذابنا ..

وطمعى فى أن أفوز بك كاملا هو الذى قعد بى فى مكانى لأبرحه
ولا أحاول أن أسعى اليك لألقاك .. ولا أرغب فى هذا القسط
الزهد من اللذة ..

لم أكن فاضلة ..

كنت أريد اللذة كلها .. ولم يكن يشبعنى قسط منها .. لم تكن
تشبعنى رشفة من حافة كأسك .. أو لمسة من وجودك .. ولهذا
آثرت أن أعيش فى معنى وجودك .. مع صورتك وفكرتك ..
شكرا لك ..

ان حبيبى يحمينى منك ويحمينى لك ..

ويحمينى أنت أيضا لى .. كأجمل ما تكون مع زوجتك وولدك ..
ان الحب شعور طيب مهما كانت صورته .. ولا يمكن للواقع أن
يساومه .. لأن الواقع أضيق منه وأرخص .. ولو أنى أصبحت

زوجتك فلن يجد حبي لك كفايته .. وسوف يفتق في التعامل
اليومي المبتذل مع الطباخ والبواب والبقال ..
ان الحياة قاسية .. قاسية ..

الحياة تدوسنا .. وتدوس مشاعرنا .. وتدوس أحلامنا .. كل
شيء يتحقق فيها تسقط قيمته .. حتى المادة نفسها .. حتى النقود ..
تظل حلما جميلا حتى نكسبها وتنفقها فتسقط قيمتها وتصبح شيئا
عاديا نرميه .. وتتخلص منه بالقمار .. !

أنا أكره الواقع .. وأحبك أنت أكثر من الواقع .. وأكثر من
الحياة .. وأحب حبك أكثر منك .. وأكثر من نفسي .. وأصعد به
الى سماوات أجمل من نفسي ومن الدنيا .. سماوات مضيئة في ..
داخلي .. تمنحني السعادة .. والسلوى .. والعزاء ..

يا حبيبي يا أجمل ما في دنياي .. أنا أحبك الحب كله .. فلا تحبني
الحب الصغير الذي لا يذكرني الا حينما يجوع الجسد وتجوع
العينان وتجوع اليدان .

أحبني الحب الكبير .. الذي ليس له حل .. وليس فيه شبع ..
وليست له وسائل ولا أوقات ..

الحب المستمر مثل الوجود .. الحاضر في القلب مثل الخفقان ..
المتصل كالأنفاس .. في النوم واليقظة ..

لا تحاول أن تسعى الى لقاء مسروق لتشبع جسدي وعيني
منى ..

ان هذا أجر زهيد لا أقبله .. لكل هذا الحب الذي أحبه لك ..

سوف أحزن كثيرا .. اذا حدث هذا .. سوف أتعذب ..
سوف تعذبني وحدتي من جديد .. وحدتي في حب لم يجد
صداه ..

يا حبيبي يا أملی .. لاتخذلني ..
دمت لی .. ولولئك .. ولزوجتك .. وسعدت في كل أوقاتك ..
« ثاني »

قرأت الخطاب مرة .. ومرتين .. وثلاثا .. وأربعا .. ولا أدري
كم مرة بعد هذا كنت أقرأه .. ثم أضعه الى جوارى ثم أعود
فأقرأه ..

وكأني أجرى وألهث في طريق ليس له آخر .. أسمع صوتها يرن
حولي .. ولا أجدها .. مثل الروح تملأني ولا أراها ..
مثل روحى أنا ..
قريبة .. ومستحيلة ..



منذ شهر وأنا أعمل في ورشة السيارات التي فتحتها .. كل يوم
من الصباح الى المساء ..

أشعر بلذة من الانهماك في عملي .. وأشعر بسعادة لأنه عملي ..
أوظف فيه خبرتي وذكائي ومجهودي دون وساطة أحد .. أنا والآلة
نقف وجها لوجه .. أفكها .. وأضبطها .. وأحكمها .. وقد تطورت
العلاقة بيننا الى صداقة فأنا أصادقها كأنها آدمي له قلب وأحشاء
ولحم ودم ..

تمنيت اليوم وأنا راكع تحت إحدى العربات لو أني استطعت
أن أفك نفسي وأعيد تركيبها ..
تمنيت لو أنها طاوعتني ..

ان الحديد يطاوعني ولكن قلبي لا يطاوعني ..
أنا أثبت عقلي في الآلة فتتحرك .. وتنظم .. ولكنني عاجز عن أن
أثبت عقلي في عاطفتي ..

أشواقى تحرقني .. صوتها يرن في أذني على الدوام .. روحها
تحكمني وتسلبني الإرادة ..

ألمس الهدوء لنفسي فلا أجده .. كيف أنساها ؟ .. كيف أروض
نفسي على الحياة بجوارها دون أن أطلبها .. كيف أطفىء ضرام
الرغبة .. ولهب الحنين .. وعقلي .. حتى يعقلني يشتهيها .. !
إنها تجد الحصانة مني في حبها لي .. فمالى أنا لا أجد حصانة

منها في حبي .. ١٢

حاولت أن أحبل نفسي على هذه القداسة التي أستغنى بها عن
لذات الحواس .. ولكني لم أستطع .. غلبتني بشريّتي .. !
احتقرت نفسي ..

كنت أذهب أكثر من مرة الى التليفون .. ثم أعود أقف أمامه في
خوف وتردد .. أمد يدي ثم أردتها ..

وأحيانا كنت أرفع الساعة وأدير القرص على رقم أو اثنين ثم
لا أجد الشجاعة لأستمر فأضع الساعة من جديد .. وكنت أجد
في ادارة الأرقام لذة لمجرد أنها تنتمي اليها .. وكان اسمها على لسان
زوجتي يحركني .. كأنه كائن حي ..

وكانت الموسيقى تعذبني .. تذكرني بها .. بتقاطيعها .. بعودها
النحيل .. ومشيتها المنسجمة ..

فكرت كثيرا في خطابها الأخير .. وفي كلماتها ..
كيف صعدت الى هذا الصفاء المعنوي .. ؟ ما الذي شدها الى
فوق ؟ .. العذاب !؟ .. المستحيل !!؟

حاولت الخلاص مثلها فلم أستطع .. كان الواقع يشدني ..
ودنيا الحواس تجذبني .. وتبدو لي أكثر اقناعا ..
كانت بيننا مسافة انسانية .. هي العذاب الذي تعذيبه .. !

سافرت الى الاسكندرية لأغرق همومي في صخب المصيف ..
ولكن الأمر لم يتغير كثيرا ..

كان الصخب يطفو على سطح وجودى .. والحوادث تجرى
حولى كأنها على شاشة .. معزولة عن نفسى .. لا أتعاطف معها الا
مجانة .. دون أن أمتزج بشيء فيها بالقلب ..
قابلت الأستاذة فاطمة المحامية .. وكانت تمشى وحدها باعياء ..
نحيلة شاحبة تحت عينيها غصون سود ..

نم أعرفها فى البداية حتى سلت على .. فأخذت أدور بعينى فى
جسمها باحثاً عن الاستدارة الجميلة التى كنت أراها مرسومة تحت
الفتان .. والصدر الرجراج الشهى الذى كان يكظ من فتحة
ثوبها ..

كانت تبدو كجذع نخلة سقطت ثمارها .. !
طلبت منى أن أوصلها للفندق لأنها متعبة .. والمغص عاودها ..
ذهبت معها الى غرفتها .. وطلبت الطبيب ..
تذكرت الليالى التى قضيناها سوياً .. وأنا أستمع الى صوتها
المبلل .. تذكرتها كأنما أتذكر سرايا .. !
— كيف حالك يا حلمى ؟ .. يخيل لى أن سنوات مضت دون
أن أراك ..

— نعم .. سنوات ..
— تبدو مهموما .. ليست هذه عادتك ..
— هموم الحياة ..
ولم أشأ أن أخبرها بشيء من هموم الحياة .. ولكنها قالت فى
فضول :

— لم أكن أعتقد أن الهموم تستطيع أن تنالك .. كنت تبدو لى
دائما رجلا قويا ..

— ان الانسان لا يستطيع أن يعيش الى الأبد قويا .. أليس
كذلك ؟!

— ماذا تعنى .. ؟!

— أنت لا يبدو الآن أنك قوية كما كنت زمان ..

— أنا .. ؟!

واكتست عيناها بالحزن وأردفت فى نبرة كسيرة :

— أنا لم أكن أبدا قوية .. أنا كنت دائما أقتل نفسى .. طول
عمرى وأنا أقتل نفسى .. لم أجد أحدا ينقذنى .. !

— لقد قتلت كل من حاولوا انتقاذك يافاطمة .. أنت تعلمين جيدا
كيف كانت حياتك ..

— نعم أعلم ..

وسكتت ثم أردفت فى يأس :

— لا فائدة .. لم يعد هناك فائدة ..

— لاداعى لكل هذا اليأس .. ان الانسان يستطيع أن يبدأ من
جديد .

— أنتظن هذا .. ؟!

— أكيد ..

وفى الحق لم أكن متأكدا ..

— أشكرك على هذا التشجيع ..

وأردفت بعد لحظة :

— ماذا كنت تقول حينما كنت تتذكرنى يا حلمى .. امرأة سيئة ..
أليس كذلك ؟ . لاتجاملنى أرجوك .. قل الحقيقة .. انهم جميعا
كانوا يقولون عنى امرأة سيئة ..

ولم أقل لها أنى لم أتذكرها الا اليوم .. وانما قلت مجاملا :

— كنت أتذكر اللحظات الجميلة التى عشناها معا ..

— شكرا .. يالك من ولد رقيق جميل .. كم كنت أحبك .. ؟!
وقلت لها باهتمام :

— قولى الحقيقة يافاطمة . هل كنت تحينى ؟ .. لقد فات أوان
الكذب

وأجابت فى ملل :

— يا ولدى الصغير .. أنا لم أحب أحدا .. ولم يحبنى أحد ..
لا يوجد رجل فى الدنيا أهل للحب .. أنت تعلم بأشياء لا وجود
لها ..

— ألا تشعرين بالشقاء وأنت تقولين هذا الكلام .. ؟!

— دعك من التفلسف .. وقل لى .. هل أحببت أنت .. ؟!

— نعم أحببت ..

— ومن هى تلك الساذجة التى خدعتها ياترى ؟ ..

— أنا لم أخدع أحدا ..

— اذن فقد خدعت نفسك ..

— وما الذى يدعونى لأن أخدع نفسى ؟! ..

— لتخلق قصة وهمية تجعل بها حياتك .. أليس هذا هو
الحب .. ؟!

— ان الحب هو الذى خلقنى .. ولست أنا الذى خلقتة .. أنا
لا أستطيع أن أخلق حيا ..

— هذه أشعار .. ان الواقع غير هذا ..

— وماهو الواقع عندك .. ؟

— الحب فى الواقع هو العذر الذى تلجأ اليه لنقضى وقتا طيبا
فى الفراش .. انه الكلمات المشهية التى نقولها لبعض لنقبل على
الأكل بنفس مفتوحة ونصنع لأنفسنا جوا من الحماس نسى به
الوقت ..

— لسنا فى حاجة لأعذار لنجتمع فى الفراش .. ان الغريزة تعتذر
بالنيابة عنا .. وهى تتكفل بخلق الحماس اللازم وأكثر ..

— لا مانع من أن نطلب مزيدا من البركة ..

— ان لقاء الفراش قد يتم على أحسن وجه ولا يحدث الحب ..
وقد لا يتم بالمرّة .. ويقوم الحب بدونه ..

— هذا كلام فارغ .. !

وشعرت أن كلامى يضايقها .. فسكت .. ودخل الطبيب ..
وفحصها .. وكما حدث فى المرة السابقة .. وقف يمصمص شفته فى
استغراب .. ويقول انه لم يجد شيئا ذا بال .. ربما كان احتقاننا أو
بردا فى المعدة .. أو أى شىء تافه لا يدعو للقلق .. ولكنها كانت
تتلوى من الألم وتطلب حقنة مسكنة ..

وفتح حقيته وأعطاهما الحقنة .. واستعادت روحها .. ومرحها ،
وقالت مداعية :

— والآن احك لى عن حبك يا صغيرى .. فقد مضى على وقت
لم أسمع نكتة ظريفة ..

— ان حبي ليس نكتة ..

— حسنا أخرج منديلك لتكفكف به الدموع .. واحكى لى عن
تراجيديا غرامك ..

— ألا تستطيعين أن تتكلمى عن شيء دون أن تسخرى منه ..
ألا تتصورين أنه من الممكن أن توجد حقيقة .. ولو على سبيل
الصدفة ..

— أى حقيقة .. ان الدنيا كلها كذب فى كذب .. انها نكتة ..
انها سخف لا يحتمل .. !

— ومع هذا فيبدو أنك حريصة على التمتع بهذا السخف
والاستزادة منه بكل طريقة ممكنة ..

— وهذا سخف آخر منى لم أستطع أن أقاومه .. !

— ألم يخطر بذهنك أن السخف قد لا يكون فى الدنيا ؟ .. وانما
قد يكون فى طريقة حياتك لهذه الدنيا ..

— هذا وعظ مسيحي جميل .. يبدو أن صاحبك راهبة فى
الفرنسكان

— أنت أسوأ دعاية لآرائك ، فمن الواضح أنك لم تستطعى أن
تبلغى بهذه الآراء أى راحة أو سعادة .. وهذا أنت بعد ثلاثين

نسنة .. وحيدة لا رجل .. ولا زوج .. ولا ولد .. ولا بيت ..
ولا حتى صديق ..؛ وحيدة مريضة في فندق مهجور وفي بلد لا تعرفين
فيه أحدا .. هل هناك فشل أكثر من هذا لك ولآرائك ؟ .. هل
يسكن أن يعاقب انسان على آثامه بأكثر من هذا .. ؟

ويبدو أن كلامي كان قاسيا لأنها سكنت ، وشحب وجهها ..
وظهر عليها الحقد والمرارة واليأس ...

وظلت تصارع ضعفها لحظة ثم انهارت فجأة تبكي .. وتشدد
شعرها ..

— حلمي .. حرام عليك .. لا تقتلني .. أنا مسكينة .. مسكينة ..
أنا في حاجة الى العطف والحنان ..

— لن تجدي العطف والحنان الا اذا أعطيت العطف والحنان ..
— أنا غير قادرة على أن أعطي أحدا شيئا .. أنا لا أملك عطفًا ..
ولا أملك حنانا .. أنا مسكينة .. مسكينة ..

وظلت تردد كلمة .. مسكينة .. مسكينة .. مدة طويلة حتى
استراحت وهدأت فمسحت دموعها ثم قالت في صوت ضعيف
هامس :

— حلمي أنت لا تعرف غنى شيئا ..

— أنا أعرف ما يكفي ..

— أبدا ..

وسكنت لحظة .. ثم عادت تبكي في سكون .. وقالت في وجل
وتردد :

— سوف أقول لك حقيقة لاتعلمها .. هل تعرف سر هذه النوبات
من المغص التي تتابنى .. ؟!

وسكنت .. وترددت ثم قالت بصوت مضطرب :

— انى أتعايل بها لأحصل على حقن المورفين .. أنا أدمن المورفين
من زمن طويل ..

وكانت هذه الحقيقة مفاجأة بالنسبة لى تماما ..

وأحسست بالاشفاق الشديد نحوها ..

— يجب أن تدخلى مستشفى لتعالجى نفسك من هذا الادمان
الدمر ..

— لا فائدة .. سوف أعالج الادمان .. ولكن كيف أعالج
حياتى ؟ .. كيف أحتملها بدون أن أتجرع السم كل يوم ؟ .. كيف
أعيش بلا حب ، بلا هدف ، بلا ايمان ، بلا معنى ، بلا اله .. كيف
أحتمل حياة كلها عبث فى عبث .. ؟! .. لماذا لاتتكلم .. ؟!

— ماذا أستطيع أن أقول لامرأة لاتشعر أن فى عالمها الها .. كيف
أدخل لها النور .. وقد أغلقت كل النوافذ ..

— أنا لا أريد الها .. أنا أريد رجلا يحبنى وأحبه .. رجلا يحبنى
بكل قلبه .. وعادت تبكى ..

نلول الطريق أثناء عودتى من الاسكندرية كنت أفكر فى نانى ..
عصفور جميل سجين .. بين جدران أربعة من المستحيل . لايسلك
حرية ولا خبزه ولا جسمه .. يعنى .. لأن لمسة من الحب لمست

روحه ففاضت بالحنان والجمال .. وأحبت كل شيء .. حتى الألم
وجدت له مبررا وعذرا .. !

وفاطمة التى تمرح طليقة كما تشتهى تشرب السم لتموت ببطء
يائسة وحيدة تعيسة .. بدون حب ..

ياويلنا بدون حب .. !

وأحسست بالشوق .. بالشوق المبهم الى الصعود حيث توجد
حبيتى فى ملكوتها وجمالها ..

وكان الشوق يسحقنى .. يذينى ..

وكان أول شيء فعلته حينما وصلت أنى جريت نحو التليفون
وأغلقت الباب .. كطفل يريد أن يأكل قطعة من الحلوى وحده .. !

ورفعت السماعة وأدريت القرص على أرقامها الخمسة .. ثم
جيت فوضعتها وأنا أرتجف .. ثم عدت أحلق فى الآلة السوداء ..
والمشاعر تتخطفنى .. ولبثت فترة .. ثم عدت فأدريت الرقم ..
وسمعت صوتها رائقا .. صافيا .. حلوا ..

— نانى .. أريد أن أراك ..

ولبثت صامتا لحظة .. ثم أجابت فى صوت متهدج يذوب حبا :

— يا حبيبى .. انى أراك .. أراك أنت وحدك .. ولا أرى شيئا
مواك .. أرى بك الدنيا كلها .. أراها فى ضوءك ..

.. نانى .. أنا أريدك ..

— يا حبيبى .. لاتخذلنى ..

— انى أحبك .. أحبك ..

— ان حبك جعلنى ملكة .. فلاتدعه يجعلنى جارية ..
— أنا أحبك ..

— أنا أعبدك .. أنت روحى .. ارادتى .. أملى .. كن ارادتى
الكبيرة ولا تكن ارادتى الصغيرة
— أنت تحبيننى كما أحبك ..
— أنا أحبك أكثر مما تحبنى...

وسكنت لتلهث..وتخطف أنفاسها كأنها كانت تجرى شوطا طويلا
وأحسست بلهثاتها تنبع من بعيد .. ومن قريب .. من قريب
جدا .. من روحى ..

وأحسست أنى صغير جدا الى جوارها ولم أعرف كيف أعذر
— ساعدنى لأحبك كما تحبيننى ياملكتى .. لن أجعلك جارية
أبدا .. سوف أكون ارادتك .. ارادتك الكبرى .. وأجمل أحلامك
— يا حبنى .. يا حبنى .. يا حبنى ..

وظللت برهة ساكنا .. لا أحس بوجودى .. ثم بدأت أفيق ..
وذهبت الى عملى .. وظللت أشتغل الى وقت متأخر من الليل ..
وعدت مرهقا .. لأتمدد فى فراشى مفتوح العينين فى الظلام ..
أتذكرها وأتذكر كلماتها .. كلمة .. كلمة .. وألتبس منها القداسة ..
والنجاة .. وأتوسل بها الى الجزء الأسمى من وجودى ..
وأصعد اليها .. على درجات المستحيل درجة .. درجة .. يأخذ حبها
ييدى .. الى حيث أجمل لذاتنا .. !

تمت

اشترك في روايات الهلال

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن علي الحاس
ص ٠ ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد
صندوق البريد رقم ٢١

البرازيل : Sr. Miguel Maccul Cury.
R. 25 de Março, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo, BRAZIL

سنغافورة : Ahmed Bin Mohammed Bin Samit
Almaktab Attijari Asshargh.
P.O. Box 2205
SINGAPORE

انجلترا : The Aravic Publications Distributlon
Bureau.
7, Bishopthorpe Road
London S.E. 26.
ENGLAND

736
155
66

Library of the Ministry of Education

مكتبة الوزارة



06555693

